لينين

الدفاتر الفلسفية - ٢



لينين

الدفاتر الفلسفية - ٢

جزء
١

ترجمها وعلق عليها
الياس مرقص

دار الحقيقة - بيروت

مكتبة الشيوعيين العرب
https://sites.google.com/site/arcommunistslibrary

نسخه للإنترنت بواسطة الماسح الضوئي: الصوت الشيوعي
https://sites.google.com/site/communistvoice
communistvoice@yahoo.com

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
بيروت ١٩٧٤

تمهيـــد

هذه المجموعة تواصل وتختم إصدارنا لدفاتر لينين الفلسفية . وهي تضم :

١) **ملاحظات على « مدخل الى الفلسفة » لبولسِن** ، كتبها لينين في سنة ١٩٠٤ ، في جنيف .

نقد مقالة ديبورين عن « المادية الجدلية » ، كتبه لينين في ١٩٠٩ ، في باريس .

في نهاية هذا القسم ، نعرض **نصوصاً** من كتاب **لينين « المادية والتجريبية النقدية »** ، الصادر عام ١٩٠٩ .

٢) خلاصة مؤلف **فوير باخ « دروس عن جوهر الدين »** . كتب لينين هذه الملاحظات في سنة ١٩١٤ ، في مدينة كراكوفيا (بولونيا – النمسا) ، قبيل الحرب .

هذه القراءة اللينينية مدخل لا غنى عنه لمعرفة ما هي المادية .

هنـاك من يتصورون ان مشكلة المادية والمثالية تبدأ وتنتهي عند سؤال أيها أسبق المادة أم الفكر ، هل الكون مخلوق الخ ؟ ، من يتصوّرون ان هذه المسألة ليس تحتها وفوقها مسألة ، من يتصوّرون انهم وفوا المادية حقها بما أنهم يرفضون الخلق ويعلنون على الطالع والنازل أسبقية المادة وان الفكر نتاجها ولعلهم أيضاً يضعون الروح بين مزدوجين ثم يضيفون «الديالكتيك» .

بالمقارنة مع هؤلاء ، إن فويرباخ اللا جدلي يبدو بالغ الجدلية ، ناهيك عن **مادية** فويرباخ و « مادية » هؤلاء . لقـــد وعى فويرباخ مسألة الأصل العرفي (الحسّي والمجرد ، الخاص والعـــام) ، وإن لم يكن قد حلـّها حلاً كاملاً ، لأن هذا الحل الكامل يحتاج الى الديالكتيك . وكمادية، إن أطروحات فويرباخ لا غنى عنها .

وهناك من يتصورون (ربمـــا وراء كتاب ستالين الفلسفي) ان **مثالية** فويرباخ تظهر في فلسفته للدين . والحال ، خارج فهم فويرباخ للدين ، خارج تعليله للدين ، خارج « جوهر المسيحية » و « دروس عن جوهر الدين » ، لا مادية فويرباخية (وماركسية ولينينية) . في كتاب « جوهر المسيحية »، أعاد فويرباخ المادية الى سدّة العرش ، و « دروس عن جوهر الدين » تُواصل الخط ، تدفعه الى أمام . (ومثالية فويرباخ في الدين ما هي إلا « مُلحق » عمّره فوق البناء) .

٣) خلاصة كتاب **فويرباخ** عن **لايبنتس** Leibniz ، وقد وضعها لينين في مكتبة برن (سويسرة) في ايلول ١٩١٤ . — ثم ، بعده مباشرة ، قام لينين بدراسة « المنطق الكبير » لهيغل — .

هذا المؤلـّف عن لايبنتس يعود الى فترة سابقة في عمل وفكر فويرباخ . وضوحاً انه ينال كل تثمين لينين . وقد دعـــا جورج لوكاكش في محاوراته الأخيرة مع الأساتذة الألمان الى الاهتمام بلايبنتس ومؤلف فويرباخ وقراءة لينين لهذا المؤلـّف . وقـد نال لايبنتس تثمين ماركس وانجلز ولينين ، كجدل ، رغم وجهه (الجوهري) المثالي والصوفي .

٤ و ٥) « **دروس تاريخ الفلسفة** » **لهيغل** ، و « **دروس فلسفة التاريخ**» **لهيغل** أيضاً ، أوائل (؟) ١٩١٥ ، مكتبة برن . نجد آثار هـذه القراءة في كراس « إفلاس الأممية الثانية » الذي حرره لينين في أيار ١٩١٥ .

إن **دروس تاريخ الفلسفة** لهيغل هي أطول نصوص هذه المجموعة ، وهي

تكمّل مباشرة «المنطق الكبير». هيغل مهتمّ بشكل خاص بالفلسفة **اليونانية**، بالديالكتيك في الفلسفة اليونانية . ولكن هذا العرض هو أيضاً وبطبيعة الحال عرض للديالكتيك بوجه عام . ولينين يسير وراء هيغل ، معه وضده .

٦ و ٧) تحليل نقدي لكتاب **لاسال** عن **هيراكليت** غامض إفسس، ولكتاب **ارسطو** « **الميتافيزياء** » . ويرجّح ان هذين النصين البالغي الأهمية قد كتبهما لينين مع نص « **حول الديالكتيك** » في نيسان – ايار ١٩١٥ ، في مكتبة برن أيضاً .

هذه النصوص الثلاثة (القصيرة نسبياً) هي نوعاً ما ذروة هذا العمل الفلسفي للينين، ذروته وزبدته ، خاتمته وجَذْره . سيكون اذن على القارىء بعد الانتهاء من النصين الجديدين ان يعود مباشرةً الى نص «حول الديالكتيك» في مجموعتنا السابقة .

٨) بعض المتفرّقات : تحليل كتاب **جورج نويل** عن **منطق هيغل** ؛ قائمة بتراجم لهيغل الى الفرنسية وبمؤلفات عن هيغل بالفرنسية (أوائل١٩١٥، برن) ؛ تحليل كتاب يوهان **بلنجه** Plenge « **ماركس وهيغل** » (١٩١٦ ، زوريخ) ؛ ملاحظات على **مؤلفات في العلوم الطبيعية** ؛ وعلى مؤلّف **كوينوف** Cuénoff عن **فويرباخ** (أوائل ١٩١٥) .

الأقسام الأهم (محور هذه المجموعة) هي اذن ٢ و ٣ ، ٤ و ٥ ، ٦ و ٧

استغنينا عن النصّيْن الآتيين :

١) خلاصة « **العائلة المقدسة** » لـ **ماركس وانجلس** . وهي **نقل** لمقاطع من الكتاب المذكور ، الذي قرأه لينين في ١٨٩٥ في برلين ، بعد خروجه من روسيا . يجد القارىء هذه المقاطع وعرضاً لمجموع كتاب « العائلة المقدسة » في الجزء الثالث من كتاب **اوغست كورنو** «**ماركس ـ انجلز**» ، الذي سيصدر قريباً عن دار الحقيقة .

٢) مقاطع طويلة نقلها لينين من كتاب **آبل ري** Abel Rey عن **الفلسفة الحديثة** والعلوم (الرياضيات ، الفيزياء ، علم الحياة الخ) مع بعض الملاحظات القليلة للينين . المجموع ٧٠ صفحة من الحجم الكبير . وكان لينين قد تعامل مع ري (مع مؤلفاته السابقة) في «**المادية والتجريبيّة النقدية**» المحرر في ١٩٠٨ والصادر في ١٩٠٩ .

إن فترة ١٩١٤ – ١٩١٥ هي ، في حياة لينين ، فترة عمل فلسفي مركّز ومتّصل ... وبالطبع ، إن هذا العمل لا ينفصل عن مجمل أعمال لينين (١٨٩٣ – ١٩٢٣) . وفي هذه الأعمال تحتل الفلسفة مكاناً أساسياً ، وهي تلازم لينين من البداية الى النهاية . فضلاً عن المؤلفات الفلسفية (« المادية والتجريبية النقدية » ، «الدفاتر الفلسفية» ، « دور المادية المكافحة» ١٩٢٢) ، نجد الفلسفة في المؤلفات ذات طابع « نظري عام » (كارل ماركس، المصادر الثلاثة ، مراسلات ماركس وانجلز ، مقدمة للترجمة الروسية لرسائل ك. ماركس...) ، في المقالة عن انجلز بمناسبة وفاته (١٨٩٥) ، في المجادلات ضد الشعبيين ، ضد ستروفه ، ضد الاقتصادويين ، ضد المنشفيك ، ضد روزا لوكسمبورغ والاقتصادوية الامبريالية ،ضد كاوتسكي ،ضد تروتسكي وبوخارين الخ ، في « ما العمل » (١٩٠٢) ، في « اليسراوية ، مرض الطفولة » (١٩٢٠) ، في مؤلفات سنة ١٩١٧ الفاصلة ، في المؤلفات الأخيرة (١٩٢٠ – ١٩٢٣ : سبل الثورة العالمية ، شعوب الشرق ، مستقبل روسيا الخ) . ولا مجال للشك في أن خط لينين الفلسفي واحد من ١٨٩٣ حتى ١٩٢٣ : من المستحيل أن نجد عند لينين قبل ١٩١٤ نقصاً ما في الديالكتيك أو المادية أو مخالفة ما للمنطق . ولكن لا مجال للشك في أن هذا الخط يسير قدماً أي انه يتعمق ويتكامل . وإذا كان يمكن ويجب أن نحدد فترة ١٩١٤ – ١٩١٧ على انها فترة تكوّن اللينينية «النهائي» أو تبلورها بوصفها ماركسية عصر الامبريالية

والثورة الاشتراكية، فإن هذا الأمر لا ينفصل عن «عودة» لينين الى «هيغل» وعن مجمل نشاطه الفلسفي على امتداد عامي ١٩١٤ و ١٩١٥ .

من الخطأ والغباء أن نتصوّر أن وظيفة المادية الجدلية عندنا هي أن تقيم المادية التاريخية – نظرية تطور المجتمع الانساني – التي تقيم بدورها علم الاقتصاد السياسي الماركسي الذي ينقلنا بدوره الى فهم المرحلة أو انشاء لوحة الوطن والعالم الحالية التي تحدد الستراتيجية التي تحدد بدورها التاكتيك الآني والعياني . من الخطأ والغباء أن نتصوّر ان الفلسفة لا تحكم العمل السياسي إلا عبر هذه الوساطات ، عبر هذا التسلسل . هذا التصوّر التجريدي معادٍ للعيانية والكلية . ولو كان صحيحاً لكان علينا أن نرمي لينين وأن نمسك جيداً ببليخانوف وكاوتسكي وستالين ونوعاً ما « بالجميع » فيما عدا لينين .

من الخطأ والغباء أن نتصور ان الفلسفة شيء ما يحلّق في الأعالي ، وليس قائماً في الأساس ، مع الانسان ، مع العمل والمعرفة . لينين أكبر شرح أو بيان لهذه **الجذرية** . هناك تيار أو تيارات في الماركسية الدولية (والعربية) الحاضرة تقطع الماركسية عن ريكاردو وآدام سميث ، عن هيغل وفويرباخ . على حد قول أصحاب هذه التيارات ، الماركسية وضعت إشكالية جديدة . والحال : لا جديد بلا قديم ؛ لينين يجابه أفلاطون ؛ اشكاليتنا الأساسية مشتركة مع أفلاطون وأرسطو ، ومع ما قبله ، مع الانسان وعمله وحياته . الثورة الاشتراكية هي الثورة الثانية في تاريخ البشرية ، بعد النشوء الطويل الشاق للنوع البشري . ولقد كان محتوماً في القرن العشرين أن يعيدنا العدو وأن نعيده الى الأصول ، الى المبادىء ، الى الألفباء . هذا العدوّ يضيّع الأصول – المبادىء – الألفباء ؛ المثالية تنفذ الى صف الماركسية والماركسيين ؛ ولينين يجابه بركلي وافلاطون .

في إطار المادية واشكاليتها ثلاثة مواقف لا رابع لها : افلاطون (= المثالية الموضوعية) ، بركلي (= المثالية الذاتية) ، لينين (= المادية)

– والقضية ليست صعبة – . ولكن إشكالية المادية هي أيضاً إشكالية الديالكتيك ، أو ان النظرية المادية للمعرفة والديالكتيك والمنطق شيء واحد في كلمات ثلاث . هنــا قيمة **هيغل** ، قيمة **هيغل وفويرباخ** ، **وقراءة لينين** لهما ...

القارىء سيحفظ في ذهنه هذه الحقائق : موقع الدفاتر الفلسفية في تاريخ اللينينية ؛ ودلالة هذا الرجوع الى الألفباء قبيل الانعطاف الحاسم .

وسيعود القارىء الى المجموعة السابقة **(دفاتر عن الديالكتيك)** التي ضمت : **خلاصة منطق هيغل** ، **وفهرس المنطق الصغير** ، ومقاله **«حول الديالكتيك»** .

وكان طبيعياً ان يجد القارىء صعوبة غير قليلة في فهم **خلاصة منطق هيغل** . ونحب أن نعْلِمه بأن هذه النصوص الجديدة أسهل الى حد كبير ...

ولقد قدمنا للمجموعة السابقة بتعريف **أولي** بالفلسفة ومدارسها وأعلامها ومصطلحاتها .

في هذه المجموعة ، نضع (في أسفل الصفحات وفي نهــاية البحوث) **ملاحظات** ، ونضع كلام لينين **كاملاً** في متن النص – وهــذا بخلاف طريقة إخراجنا للمجموعة السابقة – .

نعتمد ترجمة **ليدا فرنان واميل بوتيجلي** ، **المنشورات الاجتماعية** ، **باريس ١٩٥٥** . وننقل عنها **بعض** ملاحظاتنا .

بوجه الاجمال،نعتمد كترجمة للمفردات الفلسفية المصطلحات التي اعتمدناها سابقاً ، فيما عدا Etre التي نترجمها بـ **كينونة** ، **كائن** ، بدلاً من « وجود »، رغم ان ذلك يخالف الدارج . كان يمكن ان نقول «كَوْن» ، ولكنْ تركنا هذه الكلمة لـ Univers . ونذكّر أن être ، est هو في آن فعل الوجود وفعل الوصف الخبري او الاخبار ، انه فعل الكون ، الرابطة في الحكم أو القضية (جان إنسان ، جان « هو » إنسان) .

بارمنيد كان أول من جرّد الكينونة ، متخطياً « صيرورة » أو « تحوّل » هيراكليت ... هذه « الكينونة » أقامت المثالية والميتافيزية ؛ ولكن المادية الجدلية الماركسية جعلتها مقولتها الأولى التي تقابل الفكر . كينونة بارمنيد وخلفائه لا تأخذ وعي أنها تجريد ، أي فكر ، انهـا اذن تقيم الفكرانية ، وهْم الفكر عن نفسه ، المثالية . « كينونة » الماركسية ، « مادة » لينين ، تعي انهـا **مقولة فلسفية** ، ان الفكر **انعكاس نوعي** ، بالمفاهيم ، بالمقولات ، بالكلمات ، عن الكينونة – التي – أمام ، و « الكينونة » أوّل هـــذه الكلمات وأكبرها . « أنا أفكّر » **اذن** الكينونةُ أمامي ، و « كينونة » تعبير أوّل عنها ، بداية معرفتها ، بداية تدفع التصويف من البداية . فكري ليس الكائن بل انعكاسه النوعي ، وأريدُه صحيحاً أميناً ...

الاشتراط الفلسفي الأول هو وعي اننا نعمل بالمفاهيم ؛ كل البشر يعملون بالمفاهيم ، هذه النقطة يجب أن تُرفع الى وعي كامل وصارم ، « الديالكتيك ملازم لكل معرفة انسانية » ؛ يجب تحويل هذا اللاواعي الى واعٍ . الفكر الذي يتصوّر انه هو الواقع وليس انعكاسه الصحيح أو الخاطىء أو الخيالي ، الفكر الذي يرى انه انعكاس عن الواقع دون أن يرى انه انعكاسه النوعي المفهومي ؛ الذي يرى انه انعكاس مباشر غير موسَّط الخ ، ينتهي فوراً الى لابتعاد عن الواقعوالقطيعة معه . الفكر الذي لا يأخذ وعي انه «الذاتي» (وان الموضوعي مقابله) يعجز عن بنـــاء لوحة الموضوعي ، لا يقترب من الموضوعية ، ينتهي الى الذاتوية .

الياس مرقص



١

بولسن : « مدخل الى الفلسفة » ، ١٩٠٤

ديبورين : « المادية الجدلية » ، ١٩٠٩



فر . بولسن :

« مدخل الى الفلسفة »

صدر عام ١٨٩٩

الطريقة التي بها يضع المدخلُ المسألةَ صراحةً ذاتُ دلالة بالغة : إن مهمة الفلسفة الحديثة هي « مصالحة التصوّر الديني للعالم مع التفسير العلمي للطبيعة » (ص ١٧) . هكذا ! وهذه الفكرة مبسوطة بالتفصيل : الكفاح ، كما يقول، على جبهتين – ضد المادية وضد «الجزويتية» (الكاثوليكية والبروتستانتية معاً) . وبالطبع ، إن المادية مفهومة (معطاة ؟) كمادية محض ميكانيكية ، فيزيائية ، الخ . (م ١) *

كذلك يقول المؤلف بلا مواربة ان الفلسفة الحديثة تعتمد على كنط وتمثل « الواحدية المثالية » .

حتى الصفحة ١٠ ... الصلح بين العلم والايمان ...

وص ١١ : « القطب الذي تدور عليه فلسفة **كنط** (إقامة هذا السلام) هو وجوب ... أن نعيد الى كل منها حقّه : الى العلْم ضد ريبيّة هيوم ،

* انظر الشروح والملاحظات في نهاية البحث .

الى الايمـــان ضد نفيه العقيدي [الدوغمائي] في المادية . — هذه نتيجة مشروعة » (١٢) .

« هنـاك شيء واحد من شأنه أن يعكـّر هذا الأفق الغني بالأمل (أمل هذا الصلح) ألا وهو ... الراديكالية [الجذرية] ، عدوّة الدين المطلقة ، التي تنتشر الآن في أوسع جماهير السكان ... هكذا (كما سابقاً في البرجوازية) فإن الإلحاد يظهر الآن بوصفه عقيدة [دوغما] الاشتراكية الديمقراطية » ، ص ١٦ . « هذا موجز تعليم ديني [catéchisme] بالمقلوب . وهذه العقيديَّة الجديدة ، مثل القديمة ، هي عقيدية سلبية ، عدوّة العلـْم ، بقدر مـا هي تقيّد بعقائدها الجامدة روح النقد والشك » (ص ١٦) . (يذكـّر بلقب Antipfaffen — « ضد الخوارنة » — (؟) ويؤكد ان المسيحية ليس لهـا ميل أو حبّ للأغنياء وأنها ستبقى أيضـــاً بعد النضال الذي نحوه تتـّجه اوروبا) . (م ٢)

إن بولسن ، في دحضه للمادية ودفاعه عن النظرية التي تمنح كل شيء نفـْساً (يؤوّلها بالمعنى **المثالي**) ، لا يلاحظ : ١) انـه لا يدحض المادية بل فقط **بعض** الحجج **لبعض** الماديين ؛ ٢) انه **يناقض** نفسه ، بتأويله عـــلم النفس المعاصر في الاتجاه المثالي .

لاحظ ص ١٢٥ « القوّة ... ليست شيئاً آخر سوى اتجـاه الى فاعلية محدّدة ، وهي بالتالي ، بجوهرها العام ، تتطابق مع الارادة اللاواعية . »

(اذن — إن الظاهرات الروحية والقوة ليست أموراً مستحيلة التوحيد كما وبالقدر الذي فيه ظهرت بادىء بدء للمؤلف ، ص ٨٨ وبعدها) .

ص ١١٠ — ١١٤ : لماذا لا يكون الكون حاملاً روح العالم ؟

(لأن الانسان ودماغه هما التطور **العالي** للروح، كما يعترف المؤلف نفسه).

حين ينقد بولسن الماديين ، — يعارض المادةَ بالأشكال **العليا** للروح . حين يدافع عن المثالية ويؤوّل السيكولوجيا المعاصرة تأويلاً مثاليـاً ، — يُقرِّب

الأشكالَ الدنيـــا للروح من القوى ، الخ . (هنا نقطة الضعف القاتلة في فلسفته) . (م ٣)

انظر خصوصـاً الصفحة ١٠٤ حيث يعارض بولسن **فكرةَ** ان **المادة** هي شيء ما **ميت** . (م ٤)

ضد ذلك ، ص ٨٦ « في الحركة لا يوجد أي أثر للفكر » ... (م ٥) .

يبدو أن المؤلف يتخلـّص بسهولة زائدة من فكرة انالفكر حركة (م٦). حججه ليست **إلاّ** الحسّ السليم العامّي . يا للحماقة ، « الفكر ليس حركة ، بل هو فكر » (ص ٨٤) . لعل الحرارة هي أيضاً ليست حركة بل هي الحرارة ؟؟ (م ٧)

حجج المؤلف غبيّة تماماً حين يعلن ان عالم الفيزيولوجيـا سيتحدث أيضاً وأيضاً عن أفكار ، ولكنه لن يتحدث بعد الآن عن حركات مساوية لهذه الأفكار ؟؟ (م ٨) عن الحرارة أيضاً لن يتوقف أحدٌ **أبداً** عن الحديث .

عاشقاً ، انه لن يحدّث « حبيبته عن السيرورة الشريانية — الحركية الموافقة ... ذلك سيكون حمـاقة بديهية » (ص ٨٦ — ٨٧) . بالضبط ! حماقة السيد بولسن ! إذا كنا نشعر بأن الحرارة غير كافية ، فإننا لن نتحدث عن واقع ان الحرارة هي نوع من الحركة ، بل عن وسيلة ايجاد فحم . (م ٩)

بولسن يحكم على أطروحة ان الفكر حركة بأنها حماقة . وهو ذاته يعلن معارضته للثنائية ، في الوقت الذي فيه يتحدث عن « المعادِل » (ص١٤٤)— « المعادِل الفيزيائي للنفسي » (أو الظاهرة الموازية) . أليس هنـــا نفْسُ خلط المفاهيم الذي عليه يؤنب بوشنر Büchner بازدراء ؟ (م ١٠)

حين يعلن بولسن ان مذهبه في التوازي « ليس مُمَوْضَعاً مُمَوْقَعاً » بل هو « مثالي » (ص ١٤٩) ، فإنه يُبرز أكثر أيضاً طابعه الثنائي . هذا ليس تعليلاً ولا نظرية بل محض لعبة ألفاظ . (م ١١)

●

ملاحظات :

(١) . لينين يعارض هذا الفهم . ميكانيكية ، فيزيائية الخ ، فيزيولوجية ، بيولوجية ، هذا لا يستنفد الكائن أمامنا . انه تحديدات ، تعيينات . يمكن أن نضيف : تاريخية ، اقتصادية ، اجتماعية ، أي أن نكمل المادية بالمادية التاريخية . هـــذا كله ضروري ؛ وقد أسّس المادية الحديثة ، الجدلية ، الكاملة ؛ ولكنه أيضاً لا يَستنفِد . قضية المــادية لا تُستَنْفد . والمسألة الفلسفية الأولى – العليا – ليست هي **فقط** المسألة **الاولى** . النظرية المــادية للمعرفة ، مبسوطةً بشكل صحيح وإلى النهــاية ، هي أيضاً الديالكتيك والمنطق .

(٢) . (؟) لينين يرفض هــذا اللقب التافه (« ضد الخوارنة ») الذي يصيب مادية القرن الثامن عشر **كما انحطّت فيما بعد** كمادية . « ضد الخوارنة » موقف الحزب البرجوازي الراديكالي ، موقف لطلبة الجامعات ...

وضوحاً ، مــا يقصده بولسن بـ « النضال الذي نحوه تتجه اوروبا » هو الثورة الاشتراكية . وقد لا يكون بولسن ضد هذه الثورة . هذا لا يغيّر شيئاً من المسألة (الفلسفة) التي يعالجها بروح المثالية والاختلاط .

وصف « العقيديّة » (الدوغمائية) يصيب **قطعاً** كل المادية فيما عدا المادية الجدلية . يصيب طائفة من أعــلام الماركسية ، ولكنه لا يصيب ماركس وانجلز ولينين . وهو يصيب المثالية ولا سيما المثالية الأحدث ، الوضعيــة ، اوغست كونت مثلاً . بولسن يرفض « توحيد » الفكر مع شيء آخر (كما يرى القارىء في تتمة نصّه) ، يرفض اعتبار الفكر **حركة** بحجة انه الفكر . هــذا يذكّرنا **بمنطق** نموذجي عند كونت (المتسامح ، العدو للدوغمائية والاستبداد الفكري !!) : الضوء هو الضوء ، وسيبقى أبداً مغايراً للحركة أو للصوت !

(٣) . ثمة نمو – تطور – انبساط ، واتصال – انقطاع . هـــذا هو الانبساط أو التطور التاريخي للكينونة المادية ، للمادة أمامنا (خارج رأسنا: خارج مسيرتنا الفكرية هذه) . ولكن بولسن يجانب هذا، يسقط في تناقض وتنافر بين موقفين همــا موقفان سَليمان فيما لو نُزِعت المثالية ، سَليمان ويفرضان الديالكتية .

حين نقول ان الفكر حركة المــادة فإن هذا التعليل المحوِّل المخفِّض ليس إلا تعييناً أول جوهرياً ، نقطة أولى بديهية ترفضها أو تتحايل عليها المثالية ، بينما المادية المبتذلة تجرجرها الى ما لا نهــاية ... « ضد الخوارنة » وفكرة الخلق . (انظر كتاب **انجلز** « لودفيــغ فويرباخ ») .

(٤) . « المادة ليست شيئاً مــــا **ميتاً** » . هذا موقف مشترك لبولسن وللينين ؛ للمثالية ، للإحيائية ، للصوفية ، للمادية اليونانية الأولى («الحيوية»)، للايبنتس ، لهيغل ، لفويرباخ ، لماركس وانجلز ولينين .

في المادية الجدلية : « حياة » المادة تعني حركتها ، رابطتها ، فاعليتها ، تعني السببية ، الضرورة ، الجدل الموضوعي ، « الحركة التلقائية أو الذاتية » automouvement ، autodynamique . وهي لا تضيّع فرق الحيــــاة ، مستوى علم الأحياء (علم البيولوجيا) وفرق الانساني، مستوى المادية التاريخية، والممارسة الخ .

المثالية تبسط وتوسّع الانساني ، العمل الغائي ، الروح ، على كل المادة . انها « إحيائية » روحانية animisme .

الدين (فكرة الخلق) ضرب هذه الاحيائية (إحيائية الانسان «الأوّل»). وكرّر **ديكارت** هذه الضربة في مستوى جديد متقدّم . ولكن هذا التطهير للمادة من « الروح » و « الحياة » الخ كان تطهيراً لهــا من الحركة التلقائية ، من الفعل الخ . **لايبنتس** حــاول مباشرة استرجاع المطرود فجمع الجدل والصوفية . المسألة وجدت حلـّها فيما بعــد على يد المادية الجدلية (الهوية =

مادية ، والفرق — المستويات) بعـد تطور طويل للعلوم والفلسفة (خروج المعرفة العلـْمية المفهومية من حدود الفيزياء الميكانيكية الهندسية ،... وانتهاء الفلسفة الى جدل هيغل ومادية فويرباخ) .

إن أطروحة « المادة ليست ميتة » — شأنها في ذلك شأن عـــدد من الأطروحـــات أو الصيغ الأهم والأشهر — يمكن أن تقيم أو أن « تغطـّي » المادية أو المثالية ...

(٥). هذه أطروحة مادية ...

(٦)... ولكن بولسن **قلب** (الآن) المسألة : « الحركة (فيما عدا العمل الانساني) ليس فيها فكر» ، تحوّلت الى « الفكر ليس حركة » . هذا قلـْب مذهل أو ساذج ، قائم على اختلاط المفاهيم والمسائل .

(٧). نوعاً ما ، إن موقف بولسن أو ما وراء هذا الموقف هو اعتراض على التخفيض ، على التحويل المخفـّض réduction ، على التعليـــل المقلـّص . والحـــال ، إن **هـذا** « التخفيض » ملازم مشروعيته (أو المشروعية الكامنة وراء شطح بولسن) — يصيب حصراً التخفيض الذي لا يعي انه تخفيض .

الفكر حركة (حركة المادة) . هذه بداية معرفتنا له ، بداية لا غنى عنها (بولسن شاهد على انها لا غنى عنها) . والمتابعة هي : حركة نوعية، انعكاس، انعكاس نوعي ، انعكاس — انكسار، انعكاس بالمفاهيم . وفي حلقة ما من هذه المسيرة ننفصل عن المادية المبتذلة ، عن جماعة « الدماغ يفرز الفكر كما يُفرز الكبد الصفراء » ، عن جماعة « الفكر مادي » (؟ مثل صفراء الكبد ! ؟) و « الفكر مادة » (!) ، ثم في حلقة تالية ننفصل عن المادية التجريبيّة ، عن المـــادية السابقة لماركس ولهيغل . لسوء الحظ ، بولسن « قبض » كنط . ليته قبض على هيغل الذي أنهى كنط وشق الطريق للمادية الكاملة .

ان يكون الفكر هــو الفكر توتولوجيا حمقاء ، ويمكن أن تكون مجدية ضد بعض المادية ، ضد المادية المبتذلة ، **جزئياً** ضد المادية التقليدية .

ان لا يكون الفكر حركة = مثالية ؛ ان لا يكون الفكر نتاج حركة المادة يقيم ماهية أخرى ، ينقل من العلم الى الشطح ، من الواحدية المادية الى الثنائية وعبرها الى المثالية الواحدية .

(٨) الشطر الأخير من الجملة سؤال من لينين ضد منطق بولسن . لا شك ان عالم الفيزيولوجيا الذي يدرس الفكر والدماغ والانعكاس الخ سيقول دوماً « الفكر » ، لن يكف عن الحديث عن « الفكر » و « الوعي » (وبدون ذلك لن يكون عالماً، باحثاً، معلّلاً للفكر) ولكن وظيفته هي هذا التعليل. انظر **بافلوف والانعكاسولوجيا** : هذا تثبيت جبار ، رافد عظيم للمادية الفلسفية ، بخلاف موقف بوشنر وفوغت ومولشوت الذين كانوا هم أيضاً علماء فيزيولوجيا * .

(٩) نوعاً ما ، إن منطق بولسن هو : اذا كان الفكر موجوداً فإنه ليس شيئاً آخر سوى الفكر . وبالطبع إن « وجود الفكر » أطروحة بديهية (يؤكدها لينين) ويتفق عليها الجميع أو تقريباً .

عند **ديمقريط** المادي القديم، الموجود هو الذرات (الذرات والفراغ) — ويكون « الباقي » غير « موجود » . عند **لوك** رائد التجريبيّة المادي (وعند ماديين آخرين) ، « الصفاتُ الأولى » للأشياء (كالامتداد مثلاً) موضوعية ، بينما « الصفات الثانية » (كاللون مثلاً) ذاتية ، محض ذاتية ! و **بركلي** المثالي الذاتي يحوّل منطق لوك بخصوص « الصفات الثانية » ضد « الصفات الأولى » ايضاً ، يفعل ذلك بسهولة بديهية (على قاعدة الاختلاط ذاتها) ، وينفي

---

* حسب بعض المراجع الكاثوليكية ، بافلوف كان « مؤمناً » و « ممارساً » (للدين) . والمعلوم ان فوغت وبوشنر الخ كانوا بالعكس ، كانوا « ضد الخوارنة » و « ضدّ الله » . ومع ذلك (!) يبدو ما قدّمه هؤلاء « المبشّرون المتجوّلون » بالمادية للفلسفة المادية صفراً . في حين ان ما قدّمه بافلوف للمادية ولجملة المادية الجدلية والتاريخية يفوق كل تصوراتنا و « مبالغاتنا » . بالطبع هذا الخط – الانعكاس – لا يبدأ مع بافلوف بل مع ستشينوف ، داروين ، وآخرين ...

وجود الأشياء خارج الفكر ، يقيم مذهب **اللامادية** . « **المثالية الفيزيائية** » في القرن العشرين تعلن وجود الالكترونات، عدم وجود الطاولات والكراسي، وجود الالكترونات **في الفكر** (وإن موقفاً يعلن وجود الالكترونات وعدم وجود الطاولات والكراسي باسم الفيزياء والفيزيائية والتعميق يقود الى وجود الالكترونات في الفكر وحسْب . ولكن هذه النقطة الفرقية **ثانوية** بالمقارنة مع عدم وجود الطاولات والكراسي) . **المادية الجدلية** تعلن وجودَ الأشياء، وجودَ (موضوعية) الصفات « الاولى » و « الثانية » . (تفرق الخارجي والداخلي ، الموضوعي والذاتي ، الأصل وانعكاسه) ، وجود الحركة (مقولةٌ أوّلية ملازمة لمقولة المادة) ، وجود الطاولات والكراسي ووجود الالكترونات (بالجمع) ، وجود الحرارة ، **ووجود الفكر** . (الخلاف على **العلاقة** ، هذه هي المسألة ، مسألة طبيعة الفكر ، ما هو الفكر ، وجود الفكر) . وتعلن ان المادة **مقولة فلسفية** تعبِّر عن الواقع **الموضوعي** الذي تقدّمه لنا **حواسُّنا** ، الخ ، ان الالكترون مفهوم (= مقولة كينونية أو كائنية) وان الالكترونات كائنات الخ .

أعتقد بموجب ادراكي الحسّي (التافه) ان هذه سبورة، ولكن علم الفيزياء يبيّن لي انها ليست سبورة بل إلكترونات !! هذا ما أقرأه في كتاب علم نفس مدرسي كان متداولاً في سورية في الخمسينات . (بالطبع ، هذا الكلام لم يلد من بطن العروبة العربي ، ولكن هذا البطن تمثّله بسهولة) . ... لعمري ، إن كونها سبورة **أهم** من كونها إلكترونات ؛ كونها إلكترونات أعمق وأهم **في إطار** علم الفيزياء النووية ، علم **بنية** المادة . هذا العلْم ، هذه المعرفة ، لا تستنفد الكائن – أمام (وهي لا تتعامل معه كسبّورة) . ضد هذا أيضاً ، تظهر قيمة فويرباخ الخالدة ، قيمة « **حسِّي** » فويرباخ (الذي لا يُنصَف من وجهة نظر هيغل ، ولكنْ يجب إنصافه الى النهاية من وجهة نظر الجدل المادي ، ضد مثالية المقولات التي تجهل انها مقولات، وضد المثالية الذاتية ، وضد المثالية الفيزيائية و **المادية** « الفيزيائية » سواء بسواء الخ ،

وضد مثالية الماركسيين حاملي المقولات الكبرى والأصغر والجاهلين انهـــا مقولات) .

إن أية **مادية** – فيما عدا المادية الجدلية أو المادية الكاملة ، ونكاد ندعوها المـــادية المحض (نقصد لا الفيزيائية ، لا الميكانيكية ، لا البيولوجية ، لا الاقتصادية الخ ، بل المادية) تسقط مباشرة – (على قاعدة التحديدات – التجريدات غيرِ الآخذة وعيَ حقيقتِها ، على قاعدة الفكرِ غيرِ الآخذ وعيَ حقيقتِه) – في المثالية ، مثالية افلاطون ومثالية بركلي ، مثالية المقولات التي تجهل انها مقولات ، ومذهب اللامادية أو اللاكائن أمام « خارج الرأس » .

(١٠) . بالضبط . وهذه حالة **نموذجية** : خلط المفاهيم ، لقـــاء بولسن وبوشنر ، المثالية والمادية المبتذلة .

(١١) . خلاصة :

لينين يؤكد ، ضد مثالية بولسن واختلاطه ، الأطروحة المـادية الأبدأ والأشهر : الفكر حركة ، صفة متقدمة للمـادة المتحركة المتغيرة ... بالطبع إن المادة جميعهـــا تتمتع بصفة الاستجابة ، ردّ الفعل ، الارتكاس ، « الانعكاس » . – هذه النقطة صوّفها سبينوزا معلناً ان « الحجر يفكـّر »، ان الفكر محمول لجوع « الماهية » – . هذه الصفة تصير في مستوى المـــادة العضوية الحيـّـة صفـة « قابلية الاستثـــارة » ، « قابلية التنبّـه » ، irritabilété ، excitabilité . ثم ، في مستوى أعلى ، عـــبر الحيوان والسيكولوجي الحيواني وعلى قاعدته ، تصير ، مع الانسان وعمله ، الانعكاس النوعي ، المفهومي ، الانساني . فاعليـــات التحليل والتركيب والاستنتاج والاستقراء **تبـدأ** عند الحيوان ، على حد قول انجلز («جدل الطبيعة») . انعكاسولوجيا بافلوف أكبر تسويغ لجملة الاطروحات المـــادية ، ليس فقط لأطروحة الفكر نتاج الدماغ أو صفة للمـادة المتقدمة ترتبط بحركتها ، بل أيضاً وبالتحديد لمفهوم الانعكاس الماركسي – اللينيني بتمامه وخلاصه (نظرية

جهاز المؤشرات الثاني – اللغة – عند بافلوف ، « اللغة مادة بنـاء الفكر » عند ماركس الخ) .

هذا النص الأول للينين لا يتعامل جوهرياً مع نظرية الانعكاس و «تطبيق الديالكتيك على نظرية الانعكاس – الانكسار» ... في الطبعة الفرنسية ورد في مـكان متأخر ، في القسم الأخير المعنوَن « الفلسفة وعلوم الطبيعة » . وضعناه في البداية سيراً مع التسلسل الزمني لنصوص لينين وتذكيراً بالأطروحات المادية الأدنى ، دفعاً لالتباس لا مـادي ، « ثنائي » أو ثَـنَـوِي dualiste .

وحدة العـالم في ماديته ؛ ومقولة المادة أنضجها تطور طويل للعلوم والفلسفة؛ المادية هي التصور العلـْمي للكون بدون أية إضافة غريبة، اجنبية؛ المادية واحدية،مذهب يعلن وجود ماهية واحدة متعدّدة الصفات والأشكال والمستويات، لا محدودة بمعان مختلفة، أزلية ومتغيّرة أزلياً (انجلس، لينين) .

المادية واحدية ، أي أنها تنبذ ثنائية الماهيتين . والنظرية المادية للمعرفة (وهي أيضاً الجدل والمنطق ، مع الفرق) تبدأ بمقولتين اثنتين ، بسلسلتين من المفاهيم الكبيرة (مادة – وعي ، كينونة – فكر الخ) . وكل المقولات، في منطقنا ، في معرفتنا ، للكون الذي أمامنا ، ثنائية انشطارية : خاص – عـام ، ضرورة – عرض ، عمل – نظر ، شغل عياني – شغل مجرد ، قيمة انتفاعية – قيمة تبادلية الخ . إن خاصاً ليس خاصاً وعاماً ، ضرورةً ليست ضرورة وعرضاً ، عملاً ليس عملاً ونظراً ، شغلاً عيانياً كائناً مادياً ليس شغلاً (شغلاً محضاً ، فاعلية ذاتيةً) الخ ، هو تصفية متلازمة للغنوزيولوجيا المادية والديالكتيك والمنطق .

آ . ديبورين

« المادية الجدلية »

. . . .

ص ٣٩ ... بوصفها مَفْهَمَةً * للعالَم ، إن المادية الجدلية تعطي جواباً – نسبياً بالبداهة – لمسألة **بنية المادة** ، بنية العالَم [**هامش لينين** : غير صحيح] ؛ انها تخدم كأساس لألمع نظرية تاريخية : على قاعدة المادية التاريخية ، السياسة والأخلاق تصبحان بمعنى ما علوماً دقيقة . المادية الجدلية ، مفهومةً بشكل صحيح ، تأتي في كل الميادين طبيعياً بتيار جديد في **النقدَوِيّة المعرفية وخال في الوقت نفسه من أية دوغمانية** [**ه . ل** : لا فائدة من استخدام كلمات « الآخرين » !]

ص ٤١ ... كَنط فهم ان المعرفة العلمية حقاً ليست ممكنة إلا بفضل « الحدْس الرياضي » . **الحدْس الحسّي** لا يتضمن الشروط التي لا غنى عنها لمعرفة ضرورية كلياً – كونياً . الصور الحسّية عاجزة عن شمول مجموع ظاهرات المعرفة . وكنط يُجري الانتقال من **السيكولوجيّة** إلى **التعاليّة** ... (**ه . ل** : ؟)

* conception ، تصوّر ، تصوّر مفهومي .

ص ٤٩ ... إن ضيق مذهب التعالي يكمن في كونه لا يوسّع حقوقه الى ميدان واقع الاشياء ، إنما يعتبر المقولات فقط كأشكال **ذاتية** بل و **قبْلية** للوعي . إن مذهب التعالي يقبض عبْر الظاهرات نفسها على أشكال المقولات، أي الكلّية منطقيًّا . هذه الأشكال تسمح بصياغة القوانين الرياضية للطبيعة صياغة صارمة وباعطائها طابعاً كلياً . ولكن مذهب التعالي ، مثله مثل **المذهب الظاهراتي – الاحساسي** (هـ . ل : انظروا هذا !) ، لا يتعامل إلا مع الظاهرات . بالنسبة لهم ، الكينونة ، الأشياء في ذاتها ، لا يمكن بلوغها .

ص ٥٣ ... هكذا كان بارمنيد يرى جوهر الأشياء الواقعي («الواحد») في ما يمكن معرفته بالفكر أو **العقل** والذي هو موجود وراء الظاهرات العابرة والمتغيِّرة . بذلك ذاته ، فصل إدراكات الحواسّ عن قاعدتها ، **العالَم الظاهراتيّ عن العالم وراء – الظاهراتي** (**هـ . ل** : أُفْ !) (م١)

٥٦ ... الماديون الفرنسيون ، وهولباخ على رأسهم ، كانوا يضعون **الطبيعة** ، كجوهر ميتافيزي للشيء ، في معارضة **خصائصه** . هذه المعارضة **تكشف ، بمعنى ما ، نفْس ثنائية « الشيء في ذاته » و « الظاهرات » عند كنط** ... (**هـ . ل** : أكاذيب !)

٥٧ ... ولكننا نجحف بحق المادية الفرنسية اذا اعتبرناها مماثلة للكَنطية . بل إن مادية القرن الثامن عشر تعترف بأن جوهر الأشياء قابل نسبياً لأن يُعرَف (**هـ . ل** : عديم الحذاقة ونيف)

إن المادية الفرنسية تعتبر هي أيضاً ان المادة تفعل في حواسّنا الخارجية ، إلا انها تقر بأن **بعض خصائص** الأشياء في ذاتها **قابلة لأن تُعرَف** . ولكن المادية الفرنسية ليست منسجمة انسجاماً كافياً، بقدر ما هي تُعَلِّم ان بعض خصائص الأشياء وحسْب قابلة للمعرفة بينما « جوهرها » أو « طبيعتها » مخفية علينا وليست قابلة للمعرفة إلا جزئياً . (**هـ . ل** : هذه « شوربة » ، « مَغْلي ») .

٦٠ – ٦١ ... « المحايث » l'immanent يتخذ طابعاً موضوعياً واقعياً ؛ « المتعالي » le transceidant الموجود في – ما – وراء الظاهرات في دائرة « ما هو غير قابل لأن يُعرَف » يتحوّل من جوهر باطني لا تبلغه حواسّنا الى محتوى « محايث » في وعينا ، الى موضوع إدراك حسّي . « المحايث » يتحوّل الى « متعالٍ » بالقدر الذي فيه يكتسب دلالة **موضوعية واقعية** والذي فيه يعطي إمكانية الحكم على خصائص الأشياء بحسب آثارها ؛ «المتعالي» يصير « محايثاً » بقدر ما هو يتموقع في دائرة **ما هو غير قابل لأن يُعرَف** مع كونه فيما – بعد الذات ... هكذا تجد حلّها بالطريقة العلمية والصحيحة الوحيدة مسألةُ العلاقات المتبادلة بين الظاهرات والأشياء في ذاتها – هذه المسألة المعرفية ذات أعلى أهمية والتي عليها حطّم كنط والميتافيزيون **والظاهراتيون** رؤوسهم ... (**هـ . ل** : NB حقائق واقعية معبّرٌ عنها في لغة منمّقة ومتلويّة وعويصة . لماذا لم يكن انجلس يكتب هذه «الشوربة»؟)

٦٥ ... إن الجسم إذ يفعل في حواسنا فإنه يُعتبَر **سبب الفعل** الناتج عنه ، أي الادراك . **الظاهراتيون** يطعنون في إمكانية طرح المسألة على هذا النحو . **المحايثون** يفترضون ان العالم الخارجي لا يمكن بلوغه من قبل الادراك بل ولا من قبل الفكر هذا اذا كان مثل هذا العالم موجوداً ... (م ٢)

٦٧ ... يجب أن نقر ايضاً ان ادراكاتنا كنتاج فعل عاملين – هما العالم الخارجي و « حساسيتنا » – ليست متماثلة **بمحتواها** مع موضوعات العالم الخارجي الذي لا يمكن بلوغه بكيفية حدْسيةٍ مباشرةً ... (**هـ . ل** : NB) (م ٣)

٧٠ ... إن موضوعاً محروماً من كل الصفات أو الخصائص لا يمكن حتى ان نفكّره ، لا يمكن ان يكون موجوداً ، ليس له أية كينونة . العالم الخارجي **يُبنى** (**هـ . ل** : ؟؟) من قِبَلِنا انطلاقاً من ادراكاتنا ، على قاعدة الانطباعات التي يولّدها فينا العالمُ الخارجي ، الموضوعاتُ في ذاتها ...

٧١ ... فقط على قاعدة المادية الجدلية التي تعترف بوجود العالم الخارجي، يمكن تشييد **نظرية للمعرفة محض علمية** . من يرمي العالم الخارجي يرمي أيضاً سبب **إحساساتنا ويصل الى المثالية** . ولكن العالم الخارجي هو أيضاً بمثابة **مبدأ** تـوافـقٍ مع القوانين (**هـ . ل** : كلمة غير حاذقة وحمقاء) . واذا كنا نرى في ادراكاتنا **رابطةً** محدّدة ، منتظمة قياسية **بينها** ، فهذا ناجم عن كون سبب إحساساتنا ، أي العالم الخارجي ، بمثابة **قاعدة هذه الرابطة الضرورية** .

٧٣ ... **المادية الجدلية لا تحل بأي حال سلفاً مسألة بنية المـــادة بمعنى** الاعتراف المطلق بالنظرية الذرية أو الجزَيْئيّة أو بفرضية ثالثة أياً كانت . وإذا ما انتصرت نظريات جديدة عن بنية الذرات atomes فـإن ذلك لن يكون إفلاس المادية الجدلية بل بالعكس سيكون ألمع تثبيت لها . حقاً في ماذا تكمن طبيعة **التيار الجديد في العلوم الطبيعية** ؟ (**هـ . ل** : آه ! آه ! بليخانوف لا يقول كلمة عن هذا « التيـار الجديد » . انه **لا يعرفه** . أما ديبورين فيقدّمه بشكل **غامض**) . قبل كل شيء ، في كون الذرة التي كان الفيزيائيون يعتبرون انها لا تتبدلّ وانها الأبسط ، أي انها « جسم » ابتدائي ولا يتجزأ ، **تنكشف عن كونهـا مؤلفة من جُزَيْئات أو وحدات أكثر ابتدائية أيضاً** . يفترضون ان في الالكترونات لدينا عناصر الكائن الأخيرة. ولكن هل المـــادية الجدلية **تؤكد ان الذرة هي حدّ الكينونة المطلق ، نهاية الكائن الأخيرة** ؟... (**هـ . ل** : صح !)

٧٤ ... من الخطأ أن نفكـّر ، على طريقة الماخيين الروس ، ان **المادة** ، مع تبني نظرية **الالكترونات** ، ان المادة من حيث هي واقع تزول ومعهـــا تنهـار المادية الجدلية التي تعتبر ان **المـــادة** هي الواقع الوحيد و **السلاح** (**هـ . ل** : كلمة غبية !) **الوحيد الصالح لتنظيم التجيم التجربة** ... هل كل الذرات مؤلفة من إلكترونات ؟ هذه المسألة ليست محلولة ، تلك فرضية يمكن أيضاً أن لا تثبت . ولكن ، **فيما عدا ذلك ، هل النظرية الالكترونية**

تستبعد الذرة ؟ انها تبرهن فقط على ان الذرة هي **نسبياً ثابتة** ، لا تتجزأ ولا تتبدل ... **ولكن الذرة ، كقوام واقعي ، ليست مستبعَدة من قبل النظرية الالكترونية** ... (م ٤)

●

ملاحظات :

(١) . **بارمنيد** جرّد الكينونة ، الـ هو être . قبله هيراكليت أكد هو وليس ، كائن وغير كائن ، التغيّر ، كل شيء يجري الخ ... فلسفة بارمنيد تلخّص على الشكل الآتي :

الكائن كائن واللاكائن غير كائن . وجود الكائن يطرد وجود اللاكائن . الكينونة ، الكائن ، الـ هو ، هو السبيل الوحيد ؛ بيد أن العالم الحسّي متناقض وغير قابل للتعليل . طريق اللاكائن هو عدم قابليته للحياة ؛ انه « درب لا يوجد فيه شيء يمكن الركون اليه » . عدم وجود اللا كائن يقود بارمنيد الى وضع أزليـة ، وحدة ، تواصل ، وجمود الكينونة . الكينونة محدودة وكروية (نجوم المساء هي نفسها نجوم الصباح) ، انها واقع متميز ومختلف عن العالم الحسّي . « كل شيء باق » ...

في موازاة وضد هذا الخط ، يمكن ان نقول : الكائن كائن والعدم غير كائن — هذه توتولوجيا ولكنها ثمينة — ، الكينونة أزلية لا يمكن «تجريدها»، إغفالها ، حذفها * ؛ وهي الكينونة المادية ، الحسية ، المتناقضة ، المتعدّدة ، المتغيّرة أزلياً ؛ وهي لا محدودة ؛ انها إذن كينونة — صيرورة ، هو — ليس؛ لا شيء باق ولكن الكل باق متغير . نسخ هـذه الكينونة المادية المتغيرة

---

* كينونة بارمنيد ليست معارضة فقط للصيرورة الاولى الهيراكليتية، بل أيضاً ضد فكرة العدم الشرقية ، ضد فكرة الخلق ...

المتناقضة الخ يحتاج الى مقولات ، تحديدات ، مجردات . أولهـا الكينونة – المادة – الطبيعة الخ التي تقابلها الفكر – الوعي – الروح .

بارمنيد ، سقراط ، افلاطون ، أرسطو = نوعاً ما بداية « المعرفة » ، الفلسفة ، المنطق ، وتصويف المعرفة : ميتافيزية ومثالية . الكينونة المادية الحسية المتغيرة اللا محدودة هي أمامنا ، خارجنا . الفكر ينسخها بطريقته . حقيقة المعرفة هي توافقهـا مع الواقع الخارجي . أفلاطون يحل الواقع في المعرفة الصائرة « الحقيقة » ، يحل الكائنات في المقولات ، الأفكار ، المثل . وبداية خط أفلاطون عند بارمنيد . وكذلك بداية المنطق ، منطق الهوية العظيم وخصْيه الميتافيزي .

مسألة ما يدعوه ديبورين العالم الظاهراتي والعالم وراء – الظاهراتي هي بالأحرى مسألة الخاص والعام . انهما متلازمان في الكائن . والفكر يقبض على العام ، على الجنس . هـذا هو طابعه النوعي وطريقه الى انشاء **صورة** العياني العميقة والحية . الذاتي إذْ يعي انه الذاتي يسير نحو الموضوعية المطلقة سيراً لا نهاية له . « إن جمعاً **لا حدّ له** من المفاهيم العامة ، من القوانين، الخ، يعطينا **العياني** في تمامه » (لينين) .

(٢) . إن أسلوب ديبورين غير مقبول . انه يضيّع المسائل والمعسكرات الكبرى . « محايثة » ، « تعالي » ، الخ ، غطّت شتى البضائع الفلسفية .

الماخيون الروس – أنصار ماخ ، باعث ومجدّد بركلي أو بركلي وهيوم وكنط على جنـاح علم الفيزياء – يتهمون المذهب المادي بالتعالي والتجاوز والقفز : فالماديون يقفزون من الاحساس الى المنبّـه ، من الذاتي الى الشيء المستقل . لينين (وكذلك ديبورين) يحارب مدرسة معروفة باسم مدرسة « المحايثين » وهي مدرسة بالغة المثالية والرجعية . ولينين (= الجدل المادي) يؤكد تلازم الخاص والعام ، أي بمفردات **هيغل** «المحايثة» أو «التحايث» ...

ديبورين يبدو منجراً وراء مناخ متنوع ومضيعاً الأرضية والبساطة .

(٣) هذا تخفيض لنظرية الصورة أو النسخة ... « المحتوى » مختلف ؟ هذا يتوقف على المقصود بكلمة محتوى . على كل حال ، إن إدراكنا لهذه الطاولة مثلاً **متوافق** مع هذه الطاولة . ليس في إدراكي شيء آخر .

(٤) يتضح من مقالة ديبورين ان التجربية النقدية ، الماضية ، المثالية الذاتية السائرة تحت ألوية « الوضعية » و العلم الأحدث ، كانت قضية كبيرة في صف الماركسيين الروس وحزبهم . فقد جرف هذا التيار الفلسفي فصيلةً من ألمع مثقفي – مفكري البولشفيك والمنشفيك الخ الذين لوّنوه بألوان مختلفة : تجربية واحدية ، تجربية رمزية الخ . ولنذكر أن بوغدانوف أهم حملة التيار « الجديد » كان أيضاً رأس اليسراويين (الاوتزوفيين) بين البلاشفة .

هناك في تاريخ الفلسفة خيطٌ يصل هيوم ، كونت (الوضعية الفرنسية ، انحطاط فرنسي لهيوم الانكليزي) ، ماخ و آفيناريوس ، البراغماتية ، وضعيّات القرن العشرين المتنوعة . عملياً ، بركلي سيّد الساح . كل الفلسفة البرجوازية الحاضرة – عما عدا الفلسفة الكاثوليكية ، التومائية الجديدة الخ– هي على هذا الخطّ .

ديبورين يعارض التجربية النقدية ، مبدئياً . لا يبدو أنه وعى حجم القضية . بليخانوف لم يع القضية أبداً ؛ و « من جهة أخرى » ، قصّر بحق هيغل ، ظل جدله قاصراً ، لم يع ان « الديالكتيك **هي** نظرية المعرفة (لهيغل و) للماركسية » («ناهيك عن باقي الماركسيين») . هذا في شقّيه أو وجهيه **عكس** لينين .

لينين هو الذي وعى حجم قضية ماخ وأنصاره الروس... كرّس للمسألة كتاباً كبيراً .

لسوء الحظّ :

١) شراح زمن ستالين – الروس،الفرنسيون الخ – خصوا هذا الكتاب ، خصوه من الجدل في شكل وآخر ، الى درجة وأخرى . – هذا اذا كان ممكناً وجائزاً هـذا التعبير ، هذا التقسيم ... – . وتتحوّل مادية لينين وكتابه الى تكرار للأطروحات « الكبرى » مبتورة ، ولا يبدو ان هـذا التكرار يقنم المـادية في العقول ... رُميت عملياً « الدفاتر الفلسفية » ، و اختُصرت أو اختُزلت « المادية والتجربية النقدية » .

٢) ضد هذا الابتذال ، ظهر ردٌ فعل معاكس ، يتعامل مع كتاب لينين ومع الأساس المادي بالإهمال . هناك ماركسيون كثيرون لا يدركون القيمة **الكلية** لقتال لينين من أجل «الأشياء»، وجودها «الفيزيائي»، موضوعيتها...

وبالطبع ليس هنا مجال تقديم عرض واف عن كتاب لينين « **المـادية والتجربية النقدية** » ، ولا سيا الأطروحات الكبرى **المنسيّة** !

ولكن لا بدّ من وقفة عند « **تعريف** » **المادة أو مبدأ المادية** .

(آ) يقول لينين : « المـادة هي مقولة فلسفية تخدم في تعيين الواقع الموضوعي المعطى للانسان في إحساساته التي تنسخه ، تصوره ، تعكسه ، والموجود بصورة مستقلة عن الاحساسات » (II – ٤) . الجملة السابقة تقول : « اذا كان الواقع معطى لنـا ، يجب أن نحمّله مفهوماً فلسفياً ؛ والحال ، هذا المفهوم مقام منذ زمن طويل ، طويل جداً ، وهذا المفهوم هو

مفهوم **المادة** . » . والجملة التالية تقول ان « هذا المفهوم لا يمكن أن يشيخ » ، كما لا يمكن ان يشيخ « صراع المثالية والمادية » ، « افلاطون وديمقريط » ... ثم يقول : « إن مسألة معرفة ما اذا كان يجب ان نقبل او ان نهجر مفهوم المادة هي بالنسبة للانسان مسألة ثقة في شهادة أعضاء حواسه ، مسألة مصادر معرفتنا ، وهي مسألة موضوعة ومناقشة منذ بدايات الفلسفة ، ومن الممكن تقنيعها بألف قناع من قبل مهرجين أساتذة ولكنها لا يمكن أن تشيخ » (II — ٤ . « **هل هناك حقيقة موضوعية ؟** »)

ويردّد لينين التعريف بأشكال مختلفة هي خط منطقي واحد في أماكن شتى من كتابه .

ولا ريب ان القارىء لاحظ ان هـذا التعريف ليس تعريفاً من النوع المألوف . إنه بالأحرى تعبير عن اتجاه المادية ، تأكيد لمبدئها . وبالضبط، إن الجدل المادي لا يقيم في الفكر قسماً اسمه المفاهيم أو المقولات وقسماً آخر اسمه المبادىء والقوانين ، وهو يضع فكرة **التعريف** — أياً كان نوعه — تحت سلطة فكرة **التحديد** détermination (هيغل ، انجلز ، لينين) .

التعريف من النوع المألوف ، المنطقي ، المشروع ، والمجدي — في حدود النقطة السابقة وتحت سلطة جدل المعرفة — ينسب المفهوم الجديد المراد تعريفه الى مفهوم أبدأ وأوسع (أشمل) ويفرقه داخل المفهوم الاوسع ، أي يعطي تحديده (الأول) العام وتحديده (الثاني) النوعي — الخاص ، كما في قولنا : الانسان هو حيوان ، ناطق .

وبالطبع إن تعريف مفهوم المادة لا يمكن ان يكون من هذا النوع ولا يجوز ان يكون من هذا النوع . محاولة التجويز المذكورة تمضي بنا من المنطق ، عبر المنطق الصوري — الصوري الذي رفض الجدل ، أي عبر الميتافيزية ، الى اللا منطق : ليس ثمة مفهوم « أبدأ » ، أوسع ، من مفهوم المادة .

بوغدانوف اعترض على تعريف المادة ، على تعاريفها المألوفة ، فهي على حد قوله ما هي إلا تكرار لمبدأ المادية . والأمر كذلك فعلاً . لنستمع الى لينين (III – ١ ، « **ما هي المادة ؟** ») :

« إن القبول بالاتجاه الفلسفي الذي ينفيه المثاليون واللاأدريون يجد تعبيره في التعاريف القائلة : المادة هي ما ، إذْ يفعل على أعضاء حواسّنا ، ينتج الاحساسات ؛ المادة هي واقع موضوعي معطى لنا في حواسّنا ، الخ .

ويتظاهر بوغدانوف بأنه يناقش بليخانوف وحده ، ويدير ظهره لإنجلس بشكل جبان ، فيغضب ويستنكر هذه التعاريف التي ، كما ترون ، « تنكشف عن كونها محض تكرارات » لـ « صيغة » (صيغة انجلز !) التي تقول ان المادة هي المعطى الأول والروح هو المعطى الثاني ، بالنسبة لاتجاه فلسفي ، بينما الأمر بالعكس بالنسبة للاتجاه الآخر . وكل الماخيون الروس يتحمّسون ويردّدون « تفنيد » بوغدانوف ! والحال ، إن أقل تفكير من شأنه ان يثبت لهؤلاء انه لا يمكن تعريف المفهومين المعرفين الأخيرين إلا بالاشارة الى أي منهما نعتبره معطى أول . ما معنى اعطاء « تعريف » ؟ انه أولاً بأول تحويل مَفْهمة معطاة الى مفهمة أخرى أوسع * . حين أصوغ مثلاً هذا التعريف: الحمار هو حيوان** ، فإني أعيد فكرة «الحمار» الى فكرة أوسع . والمسألة الآن ان نعرف ما اذا كان ثمة مفاهيم أوسع من مفاهيم الوجود والفكر ، المادة والاحساس ، الفيزيائي والنفسي ، تستطيع نظرية المعرفة العملَ بها . لا . هذه مفاهيم أخيرة ، واسعة بلا نهاية أو حدّ ، الأوسع ، التي لم تتجاوزها الغنوزيولوجيا [نظرية المعرفة] حتى الآن (بصرف النظر أو بتجريد تعديلاتنا الممكنة **دوماً للمفردات، للمصطلحات**) . فقط الشعوذة

---

* مفهمة ، تصور ، conception . ليس هناك قسم اسمه مفهوم وقسم آخر اسمه مفهمة ....

** ولينين لا يكلف نفسه عناء إكمال هذا التعريف : ليست القضية هنا .

أو الفقر الفكري المدقع يستطيعان أن يطالبا لهاتين « السلسلتين » من المفاهيم الأخيرة ، الواسعة الى مـا لا حدّ ، بـ « تعاريف » تكون أمراً آخر غير « تكرارات بسيطة أو عادية » : هذا أو ذاك معتبَر معطىً أولَ. [....] نفهم اذن في أية حماقة يسقط الماخيون حين يشترطون على الماديين تعريفـاً للمادة لا يكون محض ترديد ان المـادة ، الطبيعة ، الكينونة ، الفيزيائي ، هو المعطى الأول ، بينما الفكر، الوعي ، الاحساسات ، النفسي ، هو المعطى الثاني » . (III – ١ ، « **ما هي المادة ؟** ») .

هذا الكلام أهم من « تعريف المادة » كما جعلوه (كما جعله بعض الشراح) « **تعريفاً** » . هـذا الكلام هو **تعريف** المادة الحقيقي (ونشدّد على كلمة تعريف أكثر مما شددوا) أو (أي) هو مبدأ المادية ، أو – ولعل هـذا أصح – **اتجاهها** ، خطـّها ، الخ .

بل يجب ان نلاحظ ايضـاً (ونطلب من القارىء ان يعود الى قراءة التعريف والنص ثانية) :

١) أن المادة معرّفة بأنها « **مقولة فلسفية ...** » أي انهـا بهذا المعنى مفهوم ، فكرة ، فكر ، كلمة (كلمة كبيرة جداً) . على هـذه النقطة **المجزوءة** ، على هذه البداية ، قد لا نختلف مع المثاليين ، أو بعضهم ، مع « العقلانيين » ، مع الذين يعملون بالمقولات ويعون انهم يعملون بالمقولات . (خلافنا مع المثاليين ليس على هذه **البداية** في التعريف ، بل على ما يتلوها . وبركلي يرفض « المادة » بسبب ما يتلو البداية) . ولكننا على هذه البداية (« مقولة » « مقولة فلسفيـة ») يمكن أن نختلف ونختلف مع التجربيين الماديين ، مع الذين لا يعون اننـا نعمل وانهم يعملون بالمفاهيم والمقولات والكلمات ، اننا واياهم في مسيرة فكر وتفكير أي **نسخ نوعي** ، مع الذين لا يعطون قيمة لِـ « أنا أفكـّر » ، لأنهم يؤمنون فقط بـ « أنا أحسّ ، أنا ادرك حسياً ، أنا أرى » ، ويتصوّرون انهم بذلك لا يجرّدون ... أنا أفكر

والكائن أمامي ، هو المصـــدر والأصل ، وفكري انعكاس اريده صحيحاً أميناً عميقاً يصل الى نسخة حية عن العياني ، عن « الكل » ، عن «الجملة» .

٢) أن تعريف لينين هو تعريف **للمقولتين معاً** ، للشيء والادراك ، للمنبه والاحساس ، للمادة والفكر الخ . اذن :

٣) أن **تعريف** لينين للمادة ، للمعطى **الأول** ، حاصل عبر المعطى **الثاني**، عبر الاحساسات ، احساساتنا . وهذا « تناقض » آخر ، مخيف ، من وجهة نظر بوغدانوف والماخيين الروس ، من وجهة نظر بركلي وآخرين* .

(ب) بدءاً من **مدخل** كتـــابه (« **كيف يدحض بعض « الماركسيين » المادية في ١٩٠٨ وبعض المثاليين في ١٧١٠** ») ، يعرض لينين منطق الماخيين الروس الذي يكرّر على مسافة قرنين وتحت لواء «الماركسية» والعلم الحديث منطق بركلي .

حسب هذا المنطق الواحد ، الماديون يناقضون نفسهم بنفسهم : من جهة يؤكدون ان حواسنا هي مصدر المعرفة الوحيد (وفعلاً هـــذا ما نؤكده ويؤكده معنا بركلي وماخ ، وهذا ما يُعْرَف بالمبدأ التجريبي) . ومن جهة ثانية ، يتجاوزون الاحساسات ، يعلنون وجود أشياء مستقلة عن الاحساسات والادراكات هي مصدر الاحساسات والادراكات والأفكار ... وهذا تناقض مخيف . نحن — على حـــد قول بركلي — لم نحلّل معنى كلمة « موجود ، وُجد ، يوجد » أو « كائن » ، exister و esse . فالوجود والكينونة هو الادراك ؛ الأشياء هي « مجموعات أفكار » ، « عقد احساسات » . أما

---

* هناك «ماركسيون» يريدون إقامة تعريف خارج **العلاقة** أو بمحض علاقة «داخلية» ، يريدون إقامة مقولة دون إقامة مقولة أخرى . هـــذه مثلا قصة ألتوسر مع « تعريف » الممارسة .

الماديون فهم يتجاوزون ويتعالون ويقفزون نحو الشيء المادي . انهم – حسب الماخيين الروس – يسيرون وراء « الشيء في ذاته » لكنط (ولينين يردّ : إن هذا الكلام قاله بركلي قبل ظهور كنط بنصف قرن ، قاله ضد **المادية**) .

ويعرض لينين منطق ماخ : « نحسّ احساساتنا ، العالم ليس إلا احساساتنا » ، ويرد لينين : ليس لك الحق في القول « احساساتنا » ، يجب أن تقول « احساساتي » (I – ١ ، « **الاحساسات وعقد الاحساسات** ») .

ويلاحظ لينين ، مراراً ، ان المادية والمثالية الذاتية كلاهما تنتسبان الى المبدأ التجربي القائل ان الحواس هي مصدر المعرفة الوحيد ؛ ان ديدرو وبركلي كلاهما ينتسبان الى لوك ، ان مفهوم « التجربة » أو فكرة « التجربة » الخ أقامت ويمكن أن تقيم إما المادية وإما المثالية . ليس من فيلسوف أكد على « التجربة » و « الحسّ » و « الادراك الحسي » كما أكد بركلي ، وليس من فيلسوف أكد على « التجربة » وعلى « العمل » كما أكد المثالي – الذاتي الآخر : فيخته .

المادية الفلسفية تنطلق من التجربة الحسية لتأكيد موضوعية الكائن ، استقلالية الأشياء عن الاحساس والادراك والتجربة ...

كذلك بالنسبة **للممارسة** ، حجة المادية ضد المثالية ، لا سيما الذاتية (بركلي ، لا أدرية كنط) ، محك صواب المعرفة (مطابقة النتائج والتوقعات ، الموضوعي والذاتي) ، والتي يجب أن تكون « وجهة النظر الأولى ، العليا ، في نظرية المعرفة » (II – ٦ « **محك الممارسة في نظرية المعرفة** ») . هذه **الممارسة** تحتل مكاناً ممتازاً في كتاب لينين ، في دفاعه عن المادية ، وتثبيته وبسطه للديالكتيك ، وهي كقضية تتخطّى اطار الفقرة II – ٦ ، ترِد في فصول وفقرات مختلفة . الموقف المثالي(كما يظهر في مجادلة لينين) ازاء « العمل » أو « الممارسة » الخ يتخذ أشكالاً متنوعة : المثالية تعلن أن الممارسة ليست محك النظرية ، أن العمل ليس محك المعرفة

(« الممارسة يمكن أن تكون مادية ، أما النظرية فشيء آخر ، هذا ما يقوله ماخ ») ؛ تذوّب الكينونة ، المادة ، في الممارسة ، في النجـــاح ؛ تنفي الحقيقة الموضوعية (توافق المعرفـــة مع الواقع المستقل) ، تنفي موضوعية **محك** الممارسة ، « استقلاله عن البشر » – علماً بأن الممارسة هي حكماً ممارسة البشر ، فاعلية ذاتية ، ولكنها بالضبط فاعلية ذاتية في الموضوع تنتج نتائج مادية ، وقائع نطابقهـــا مع توقعاتنا الذاتية – ... هذه الأشكال المتنوعة متكاملة ، وهي في الجذر والحاصل خطٌ واحد مثـــالي (رافض موضوعية الأشيـــاء) وميتافيزي (رافض العلاقة ، رافض التناقض ، رافض ثنائية المقولة) . إن « **المضاربة** » على كلمات تجربة ، عمل ، ممارسة الخ لا تستطيع أن تغيّر شيئاً في مسألة المادية والمثالية ولا تستطيع أن تحل أية مسألة بوجه عام .

(ج) . إن نظرية المعرفة المادية تبدأ – كما رأينـــا – بمقولتين اثنتين أو بسلسلتين من المفاهيم الاولى الكبيرة : من جهـــة : كينونة ، مادة ، طبيعة ، فيزيائي الخ . وفي الجهة المقابلة : فكر ، وعي ، روح ، سيكولوجي الخ . هذا أمر مشهور . ولكن « التتمة » أقل شهرة . يقول لينين :

« أجل ، إن التعارض بين المـــادة والوعي ليس له دلالة مطلقة إلا في حدود ضيقة جداً : فقط في حدود المسألة الغنوزيولوجية الأساسية : أيهما أول وأيهما ثان ؟ خارج هذه التخوم ، إن نسبية هذا التعارض لا تثير أي شك» . (III – ١ ، « ما هي المادة ؟ ما هي التجربة ؟ ») .

ويستأنف لينين هذه النقطة في الفقرة IV – ٨ ، حيث يتابع عن كثب أخطاء **ج. ديتسغن** . هذا المفكر العظيم (وكان عامل دباغة) الذي وصل الى خط المـــادية الجدلية بصورة مستقلة عن ماركس وانجلس ونال تقديرهما (ونقدهمـــا) سقط في بعض الأخطاء ، انحرف في مواقع محدّدة عن خط

المادية الجدلية : **باختصار** سقط في أخطاء **مثالية** ، نوعاً مـــا تحت ضغط كفاحه ضد المادية المبتذلة ، وهو كفاح صحيح وثمين ... وبعد وفاته، حاول ابنــه ان يقيم من **أخطاء** أبيه مذهباً « موازياً » مضاداً للماركسية المادية ، فنال تأييد البعض ، ولكن بليخانوف وكاوتسكي وآخرين عارضوه . ولينين يدلو بدلوه ، يَفْرق بين أب عظيم وابن تافـــه ، **يتابع ديتسغن عن كثب .** يقول لينين :

« يقول ديتسغن : « الفكر وظيفة الدماغ ، تابع للدماغ . الفكر نتاج الدماغ ... طاولتي التي أكتب عليها ، محتوى فكري ، تتطابق مع هــذا الفكر، لا تتميز عنه . ولكن خارج رأسي، هذه الطاولة التي أكتب عليها ، موضوع فكري، هي مختلفة عنه تماماً » . هذه القضايا المادية الواضحة تماماً* يكمّلها ديتسغن بالقضية الآتية : « ولكن التمثيل الذي لا يـأتي من الحواس هو أيضاً حسّي ، مادي ، أي واقعي ... إن الروح لا يتميز عن الطاولة ، عن الضوء ، عن الصوت ، أكثر مما تتميز هذه الأشياء عن بعضها البعض » . الخطأ هنا واضح جلي . أن يكون الفكر والمـادة « واقعين » ، أي انهما موجودان ، هذا صحيح . ولكن القول ان الفكر مادي هو خطوة فاسدة نحو خلط المادية والمثالية** . بالأساس، هذا عند ديتسغن تعبير غير صحيح ، فهو يستعمل في مكان آخر مفردات أوضح وأدق : « الروح والمادة لهـما على الأقل هذا الشيء المشترك ألا وهو انهما موجودان» . « الفكر شغل جسدي . أحتاج لـكي أفكر الى مادة أستطيـع أن أفكر فيها . هذه المادة معطاة لنا في ظاهرات الطبيعة والحياة ... المادة هي حدّ الروح ؛ الروح لا يستطيـع أن يخرج من حدود المادة . الروح نتاج المادة ، ولكن المادة أكثر من نتاج الروح ... » . إن أنصار ماخ يمتنعون عن تحليل هــذه الاستدلالات المادية

---

* بخلاف ما قرأناه في نص ديبورين !

** idéalisme ، الفكرانية .

للمادي ديتسغن . [...] . إن فكرة ديتسغن التي عبّر عنها بشكل سيء هي ان الفرق بين المادة والروح هو أيضاً **نسبي ، ليس مبالغاً ، مفرطاً .** هذا صحيح ولكن يمكن أن نستنتج منه نقص المادية الميتافيزية ، المناهضة للجدل ، وليس نقص المادية المحضة .

[...] ويقول ديتسغن : « نعلن أنفسنا ماديين ... إن خاصة الفلاسفة الماديين هي انهم يضعون في الأصل ، في بداية الكل ، العالم المادي . أما الفكرة أو الروح ، فهم يعتبرونها نتيجة ، في حين أن خصومهم يشتقون ، على غرار الدين، الأشياء من الكلمات... والعالم المادي من الفكرة » . [...] ولكن ديتسغن يقول : « نستطيع أن نقول عن أنفسنا بنفس الحق اننا مثاليون، إذ ان منظومتنا ترتكز على النتيجة الاجمالية للفلسفة ، على التحليل العلمي للفكرة، على الفهم الصحيح لطبيعة الروح » . [هذه] عبارة خاطئة . [ولكن ...] العبـــارة هي الخاطئة أكثر من الفكرة الرئيسية التي تكتفي بالاشارة الى ان المادية القديمة لم تعرف تحليل الأفـكار تحليلاً علمياً (بواسطة المادية التاريخية) .

اليكم محاكمة ديتسغن عن المادية القديمة . « كمفهمتنا للاقتصـاد السياسي ، إن ماديتنا هي فتح علمي ، تاريخي . نحن نفترق عن اشتراكيي الأمس وعن ماديي الأمس . ليس لدينا مع هؤلاء من اشتراك سوى مفهمتنا للمادة، مقدمة أو أساس الفكرة الأول » . هذا التعبير « ليس لدينا سوى» ذو دلالة بالغة ! انه يشمل **كل** الأسس المعرفية للمادية **بخلاف** اللاأدرية ومذهب ماخ والمثالية . ديتسغن حريص بشكل خاص على الافتراق عن المادية المبتذلة .

ولكننا بالمقابل نجد في مكان لاحق مقطعاً خاطئاً بشكل مطلق : « إن مفهوم المـادة يجب أن يوسّع . يجب أن ننسب اليه كل الظاهرات الواقعية ، وبالتالي قدرتنا على المعرفة ، على التفسير » . لا يمكن ، بهذا الكلام ، سوى خلط المادية والمثالية بحجة « توسيع » الأولى . دعوى هذا « التوسيع » تعني

تضييع **أساس** فلسفة ديتسغن ، وهو الاعتراف بالمادة عنصراً أولياً و « حد الروح » . وبالواقع، ديتسغن لا يلبث ان يصحح نفسه: « الكل يحكم الجزء؛ المادة الروح » [...] . بالتأكيد ، إن دعوى شمول الفكر في مفهوم المادة هي اختلاط ، بلبلة ، إذ عندئذ يفقد التعارضُ العرفي بين المادة والروح ، بين المادية والمثالية ، وهو التعارض الذي يلحّ عليه ديتسغن ، علّة وجوده . أما ان هذا التعارض لا يجب أن يكون «مفرطاً» ، مبالَغاً، ميتافيزياً، فهذا أمر لا شك فيه (ومأثرة المادي **الجدلي** ديتسغن الكبرى أنه شدّد على ذلك). إن حدود الضرورة المطلقة والحقيقة المطلقة لهذا التعارض النسبي هي بالضبط تلك التخوم التي تحدّد **اتجاه** البحوث المعرفية . العمل خارج هذه التخوم مع تعارض المادة والروح ، الفيزيائي والنفسي ، كما مع تعارض مطلق ، يكون غلطاً خطيراً . » (IV – ٨) * .

نرجو القارىء أن يعود الى قراءة هذا النص قراءة متأنّية .

إن أطروحة « الفكر مادّي » ، « الروح مادية » ، يمكن أن تنال ، وهي تنال، موافقة بوشنر وديتسغن (اي الطرفين المتعاكسين) ، ولكن هذه «المادية المساوِية » لا تنال موافقة لينين قطعاً . هذا عن الأطروحة. بالطبع، كعبارة مقطوعة ، قائمة لذاتها ، إن هذه العبارة الحادّة (كغيرها من عبارات قوية وحادّة وبسيطة) ، يمكن أن تحمل معاني مختلفة ومتعارضة ، أي أنها ملتبسة . كأطروحة فلسفية ، نرفضها بلا تحفظ .

إن جماعات تحضير الأرواح ، تجاوب الأرواح ، الخ ، برغسون « الطاقة الروحية » ، اليكسي كاريل صاحب « الانسان ذلك المجهول » ، الخ الخ ، يؤيدونها . هذه هي **المثالية** المبتذلة ، مثالية الشارع . ولكن المثالية كلها بإعلانها ان الفكر أو الروح هو ماهية ليست بعيدة كل هذا البعد عن هذا

* في مكان آخر، نقل لينين تأكيد انجلس عن «نقص التعارضات القطبية» . التعارضات القطبية ونقصها الحتمي : هذا مبدأ جدل المعرفة ناسخة جدل الكينونة .

الموقف . « الماهية » – بحكم التعريف – هي « مادة » (substance تترجَم «ماهية» ، وتترجَم «مادة» ، كما في قولنا : مادة الطاولة هي الخشب ...) . والروح المثالية « مادةٌ غير منظورة » ، روح الروحانيين هي المـــادية ، « **مادية** الروح » هي **استقلال** الروح وهذه هي المثالية ...

ولكن ديتسغن بعيد **جذرياً** (في الجذر) عن بوشنر وعن برغسون ، عن المادي – المادي وعن المثالي – المادي . ومن الضروري أن نفهم موقفه ، أن نعلل خطأه .

قرأنا موافقة لينين على قول ديتسغن «الكلُ يحكم الجزءَ، المادةُ الروحَ» . وفي أماكن أخرى، يقول لينين ان « الطبيعة هي الكل والروح هي الجزء». ويقول ان العكس هو المثـــالية . بالطبع ، الاستنتاج الذي يقفز الى ذهن القارىء هو : اذن الروح مادة ، الفكر جزء من المادة، لنوسِّع مفهوم المادة، لنوسّع مقولة المعطى الأول ولنشمّلها المقولة الثانية المقابلة والمعارضة ؛ أليس هذا منطق ديتسغن وعلى ماذا يُلام ؟

بالطبع ، هذا يكون صحيحاً فيما لو كانت جزئية الروح ازاء المـادة او الطبيعة مثل جزئية قوائم طاولتي ازاء كل طاولتي . إمـا أن تكون جزءاً وإما أن تكون مقابلاً . إما داخل أو خارج ... أو كلاهما . وبالطبـع ، إن الاكتفاء – في صدد مسألتنا : المـادة والروح – بجواب من نوع « كلاهما » ليس حلاً ...

إن أطروحات مـادية صحيحة من طراز : « الروح جزء من الطبيعة ، الروح جزء من المادة » ، تعني بالتحديد ان وحدة العالم في ماديته ، ان **خارج** السيرورة الموضوعية لا يوجد شيء rien ، ان الفكر موجود « مع المادة » ، « مع » الطبيعة والانسان المادي وعمله المادي ، « مع » اللغة « مادّتـه » ، « مع » المجتمع والانتاج ، الخ ، ان الوعي عنصر في الشغل* ، ان النظر

* بحكم تعريف الشغل .

عنصر في العمل،في فاعلية الانسان الهادفة التي هي شكل من شكلي السيرورة الموضوعية (الشكل الآخر، الأول هو الطبيعة بالمعنى الضيق : ميكانيكية ، كيميائية *) ، ان « الروح في الرأس » الخ (فويرباخ ، لينين ، ماركس) . نسيان هذا يقودنا مباشرة الى « الروح أو الفكر ماهية » ، الى ثنائية الماهيتين والكينونتين و « المادتين » .

ولكن الانطلاق من هـــذه الأطروحة المادية لتصفية تعارض المقولتين وتوسيع مقولة المادة والمقولات «المرادفة» لتشمل المقولة المقابلة ، هذا الموقف الذي يحقق عكس المراد ، إنما يرتكز على نسيان أننـا في نظرية **المعرفة** ، أننا نعمل بالمفاهيم ، أننا أمام مقولات ، لا أمام كائنات وأجزاء كائنات ، وأننا ، بالتالي ، وفي هذه البداية ذاتها ، نفرق ، نفصل ، بهـــذه المقولات الأولى ، الأوسع والأبدأ ، ونقيم « مبدأ » النظرية المادية للمعرفة ، « مبدأ » الجدل المادي . إن سقطة ديتسغن ضد المادية هي أيضاً سقطة ضد الجدل ، ضد « الطريقة » .

ويعود اسم ديتسغن في الفصل الخامس « **الثورة الحديثة في علوم الطبيعة والمثالية الفلسفية** » . لينين يؤيد خطه المادي الجدلي العميق . ضد أطروحة « **المادة تختفي** » ، شعار حرب المثالية « الأحدث » (!) ، يقول لينين :

« ... إن « الخاصة » الوحيدة للمادة التي يعرّف قبولُها الماديةَ الفلسفية هي **انها واقع موضوعي** ، انها موجودة خارج وعينا .

إن غلط الماخية [...] انهـا لا تأخذ في الاعتبار هذه القاعدة للمادية الفلسفية التي تفصل المادية الميتافيزية عن المادية الجدلية [...] . لقــد كان ديتسغن يؤكد ان « موضوع العلم لا محدود » ، ان « أصغر ذرّة » هي ...

---

* على حد قول لينين في خلاصة منطق هيغل .

غير قابلة لأن تستنفَد ، شأنها شأن اللانهاية ، « فالطبيعة ليس لها في كل أجزائها لا بداية ولا نهاية [...] .

[إن] المادية الديالكتية تلحّ على الطابع التقريبي ، النسبي ، لكل قضية علمية تتصل ببنية المادة وخصائصها ، على غياب خطوط الفصل المطلقة في الطبيعة ، على انتقال المادة المتحركة من حالة الى أخرى تبدو لنا غير قابلة للوفاق مع الأولى [...] إن الفيزياء الجديدة قد انحرفت نحو المثالية ، بصورة رئيسية لأن الفيزيائيين يجهلون الديالكتيك [....] .

[...] . إن « جوهر » الأشياء أو « الماهية » هما أيضاً نسبيّان ؛ إنهما لا يعبّران إلا عن المعرفة الانسانية المتزايدة العمق للموضوعات ، ولئن كانت هذه المعرفة في أمس قريب لا تصل الى أبعد من الذرة ولا تتجاوز اليوم الالكترون أو الأثير ، فإن المادية الجدلية تلحّ على الطابع الانتقالي ، العابر، النسبي ، التقريبي ، لجميع هذه الدرجات في معرفة الطبيعة التي تتقدم بالعلم الانساني . الالكترون **لا يستنفَد** مثل الذرة ، الطبيعة لا محدودة ، ولكنها **موجودة** بشكل لا محدود ؛ وهذا الاعتراف القاطع والمطلق **بوجودها** خارج وعي وإحساسات الانسان ، هذا الاعتراف وحده يميّز المادة الجدلية عن اللاأدرية النِسْبَوية وعن المثالية . » (V – ٢ « **المادة تختفي** »)

الطبيعة لا نهاية لها ، بل هي موجودة بشكل لا نهاية له ... وينقل لينين كلام ديتسغن « المادة بلا قوة والقوة بلا مادة ، حماقة لا معنى » ، ويقول « إن محاولة **تصوّر** الحركة بلا مادة تُدخِل **الفكرَ** المفصول عن المادة، الأمر الذي يفضي الى الفكرانية [المثالية] الفلسفية » ... أما عالم الكيمياء – الفيلسوف **اوستفالد** ، صاحب المذهب القُدْرَوي (مذهب القدرة) فهو يحوّل المسألة الفلسفية المعرفيّة الى مسألة كيمياء على جناح مفهوم القدرة ... (V – ٣) .... و مذهب « **المثالية الفيزيائية** » هو مثالية « رياضية » ، أو « منطقية – رياضية » .... أفكار الفيزيائي الكبير دوهيم Duhem تبدو

مثالية + مادية جدلية . غياب الديالكتيك الواعي يقود العلماء الى المثالية . — هذا ما سيقوله أيضاً لينين في مقاله الفلسفي الأخير عن «**دور المادية المكافحة**» (١٩٢٢) الذي كان — في أحد وجوهه — احتجاجاً ضد الذين لم يفهموا كتابه « **المادية والتجربية النقدية** » ، الذين فهموه فهمـــاً « مادياً » غير جدلي (وقد دعـــا لينين هؤلاء الى دراسة منطق هيغل) — في الفصل السادس والأخير (« **التجربية النقدية والمادية التاريخية** ») يدحض لينين حماقة بوغدانوف وآخرين عن « تماثل الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي » ... وضوحاً إن هؤلاء — بين أمور أخرى — لا يعملون بالمفاهيم .



٢

ل. فويرباخ
«دروس عن جوهر الدين»



المقدمة مذيلة بتاريخ ١٨٥١/١/١ . – فويرباخ يشرح لماذا لم يشترك في ثورة ١٨٤٨ التي « كانت نهايتها مخجلة وبلا نتيجة » . ثورة ١٨٤٨ لم يكن لها حسّ – معنى المكان ولا الزمان ؛ **الدستوريون** كانوا ينتظرون الحرّية من **كلام الملِك** ، **الجمهوريون** ... من **إرادتهم** (« يكفي أن **يريدوا** الجمهورية حتى يجعلوها تولـد بذلك ذاته ») .

« اذا انفجرت الثورة من جديد واذا اشتركتُ فيهـا بصورة فاعلة ، باستطاعتكم أن تثقوا بأن هذه الثورة ستنتصر وبأن يوم الدينونة سيكون قد جاء بالنسبة للملكية والهيراركية * » .

هـ. ل. : فويرباخ لم يفهم ثورة ١٨٤٨ .

الدرس الأول (ص ١ – ١١) .

ص ٢ « كفانا مثالية سياسية وفلسفية ؛ نريد أن نكون الآن ماديين سياسيين » . **هـ . ل.** : كذا !!

ص ٣ – ٤ – لماذا انسحب فويرباخ الى الريف : قطيعة مع العالم المؤمن بالإله » ، ص ٤ ، السطر ١٣ من تحت – الحياة مع « الطبيعة » ، نبـذ كل التمثيلات ** « الغريبة الشاذة » ، ص ٥ .

ص ٧ – ١١ فويرباخ يعطي فكرة عن مؤلفاته : تاريخ الفلسفة الحديثة ، سبينوزا ، لايبنتس .

---

* نظام التسلسل الرأسي .

** représentation .

الدرس الثاني (١٢ — ٢٠) .

ص ١٢ — ١٤ . بيل Bayle * .

ص ١٥ . [**هـ . ل .** : « الحسّي » ** عند فويرباخ] .

الحسّي ليس في رأيي سوى « الوحدة الحقة ، لا الوحدة المفكّرة والمبنيّة بل الوحدة الموجودة للمادي والروحي ؛ انه اذن عندي كائن كما الواقع كائن » .

ليست المِعدة وحدها محسوسة بل ايضاً الرأس . ص ١٧ — ٢٠ : مؤلف فويرباخ عن الخلود ؛ عرض لهذا المؤلف .

الدرس الثالث (٢١) .

لقد اعترضوا على كتابي « **جوهر المسيحية** » بقولهم ان **الانسان** في رأيي ليس تابعاً لشيء ؛ « عارضوا ما ادّعوا انه تأليه الانسان من قِبَلي » . « ولكن الكائن الذي هو شرط مسبق للإنسان ... ليس **سوى الطبيعة** وليس إلهكم » (٢٥) .

إن كينونة الطبيعة ، كينونتها المحرومة من الوعي ، هي بالنسبة لي الكينونة الأزلية، التي لا أصل لها، الكائن الأول في الزمان وليس في المرتبة، الكائن الأول فيزيائياً وليس أخلاقياً » ... (٢٦) .

إن نفيي يتضمن ايضاً إيجاباً [تأكيداً]... « لا شك أن النتيجة المنطقية لتعليمي هي عدم وجود إله » (٢٩) ولكن هذه نتيجة معرفة جوهر الله (= تعبير عن جوهر الطبيعة ، عن جوهر الانسان) .

---

* فيلسوف فرنسي ريبي . أسقط حظوة اللاهوت وما وراء الطبيعة . انتقد الفلسفة النظرانية spéculative ، ولا سيما سبينوزا ولايبنتس وهما من معاصريه (النصف الثاني من ق ١٧) .

** sensible ، المحسوس ، القابل لأن يُحَسّ .

الدرس الرابع .

« شعور التبعية هو أساس الدين » (٣١) .

« الفلاسفة المعروفون باسم النظْرانيين هم ... **هؤلاء** الفلاسفة الذين لا يكيفون مفاهيمهم مع الأشياء، بل يكيّفون الأشياء مع مفاهيمهم» (٣١).

هـ . ل. : انظر ماركس وانجلس * .

« الخوف » (٣٢ — ٣٥) .

الدرس الخامس .

— **الموت** بشكل خاص يولّد الخوف ، الايمان بالله (٤١) .

« اني أكره المثالية التي تنزع الانسان من الطبيعة ؛ لا أخجل من أن أكون تابعاً للطبيعة » (٤٤) .

في كتابي **جوهر المسيحية** لم أؤلّه الانسان ، بعكس لومِهم الأحمق ، كما انني لا أريد أن أرى الطبيعة مؤلّهة لاهوتياً » (٤٦ — ٤٧) .

الدرس السادس . — عبادة الحيوانات (٥٠ وبعدها) .

« ولكن الذي يضع الانسانَ تحت تبعيّته ... هو الطبيعة ، موضوع الحواس ... إن كل الانطباعات التي تنتجها الطبيعة على الانسان بواسطة الحواسّ ... يمكن أن تصير بواعث عبادة دينية » (٥٥) .

الدرس السابع .

بالأنانية لا أقصد أنانية « الفِلِستْين** والبرجوازي» ، بل المبدأ الفلسفي، مبدأ التوافق مع الطبيعة ، مع العقل الانساني، ضد « اللؤم اللاهوتي والخيالي

---

* إشارة الى مقطع من كتاب «**العائلة المقدسة**» أكد فيه ماركس وانجلس ان فويرباخ رسم « الخطوط الأولى الأساسية لنقد التأمل النظراني الهيغلي وبالتالي كل ميتافيزياء » .

** philistin كلمة شائعة (وواردة في مؤلفات ماركس وانجلس ولينين) : البرجوازي — الصغير، الرجل الضيق الأفق العديم الاهتمامات فيما عدا مصلحته والحياة اليومية ...

الديني والنظْـراني أو التأملي المضـــارِب والاستبدادية السياسية » (٦٣) . انظر ص ٦٤ ، هام جداً . * . **هـ . ل.** : الأنانية ومعناها .

أيضاً (٦٦ و ٦٧) — الأنانية (بالمعنى الفلسفي) هي جذر الدين .

(٦٩) : العلمـاء لا يمكن الانتصار عليهم إلا بأسلحتهم ، أي بالشواهد [بالنصوص] ... « لا يمكن هزم العلمـاء إلا بأسلحتهم الخاصة أي بالاستشهادات » ...

هـ . ل. : حول كلمة « قدرة » énergie . بين أمور أخرى : ص ٧٧ ، فويرباخ يستخدم عبارة « قدرة ، أي فاعلية » . هـــذا جدير بالتسجيل . بالواقع ، في فكرة القدرة ثمة وجه ذاتي ، غائب من فكرة « حركة » مثلاً . أو ، بالأصح ، في مفهوم أو استخدام مفهوم القدرة ، ثمة شيء مـــا يستبعد الموضوعية . انظر : قدرة القمر **نسبة الى** حركة القمر . (م ١)

(ص١٠٤) ... « الطبيعة هي الكائن الأصلي، الكائن الأول والأخير»...

(ص١٠٧) ... « بالنسبة لي، في الفلسفة ... إن الحسّي هو المبدأ الأول. الأول ليس فقط بمعنى الفلسفة النظرانية ، حيث أوّل هو ما يجب تجاوزه ، بل بمعنى ما لا يمكن استنتاجه،اشتقاقه، بمعنى ما هو موجود وحقّ بذاته».

هـ . ل. : الحسّي = الأول ، ما هو موجود وحقيقي بذاته .

... « الروحي هو لا شيء rien خارج الحسّي وبدونه » .

لاحظ بوجه عام ص ١٠٨ ... « طابـع الحقيقة والماهوية للحواس الذي منه ... تنطلق الفلسفة ... » N.B. **

---

* يقول فويرباخ : « بالأنانية أعني حب الانسان **لنفسه** ، أي حبّ **الكائن الانساني** ، الحب الذي يدفع الى تلبية وبسْط كل الغرائز والاستعدادات التي بدون تلبيتها وبسطها لا يكون ولا يمكن أن يكون إنساناً حقاً ومحققاً ؛ أعني بالأنانية حب الفرد لأفراد مماثلين له ؛ إذ من أكون بدونهم ، من أنا بدون حب كائنات مماثلة لي ؟ » .

** Nota bene ، لاحظ جيداً .

١٠٨ ... « الانسان لا يفكر إلا بواسطة رأسه، الذي هو واقع فيزيائي. العقل له في الرأس ، في الدماغ ، نقطة التقـــاء واجتماع الحواس ، ارض مادية متينة . »

انظر ص ١٠٨ حول صحة شهادة الحواس .

NB ص ١١١ : الطبيعة = الكائن الأول ، الأصـــلي ، الذي لا يمكن استنتاجه من أي كائن آخر .

« هكذا إن **جوهر الدين و مبادىء الفلسفة** * كتابان مترابطان ، كل منهما تابع للآخر » (١١٠) .

« أنا لا أؤلـه شيئاً وبالتالي لا أؤلـه الطبيعة » (١١٢) .

(١١٣) فويرباخ يردّ على اللوم بأنه لا يعطي **تعريفاً للطبيعة** :

« أعني بالطبيعة ، مجموع كل القوى ، والأشياء والكائنات المحسوسة ، التي يميّزها الانسان عنه كغير انسانية ... أو لنأخذ الكلمة عمَليّاً : الطبيعة هي كل مـــا ، بصورة مستقلة عن الايحاءات فوق الطبيعيّة للإيمان الإلهي ، يَمْثل أمام الانسان مباشرةً، بشكل حسّي، بوصفه قاعدة وموضوع حياته. الطبيعة هي الضوء ، والكهرباء ، والمغناطيس ، والهواء ، والمـاء ، والنار ، والأرض ، والحيوان ، والنبات ، والانسان بالقدر الذي هو فيه كائن فاعل بصورة لا إرادية ولا واعية ، – إني ، بكلمة « طبيعة » ، لا أطالب بشيء آخر ، بشيء صوفي ، غائم ، لاهوتي (آنفاً : بخلاف سبينوزا) » (م ٢) .

هـ . ل. : ينجم عن ذلك ان الطبيعة = كل شيء ما عدا فوق الطبيعة . فويرباخ واضح ولكنه ليس عميقاً . انجلز يعرّف بشكل أعمق بكثير الفرق بين المادية والمثالية (م ٣) .

---

* « مبادىء فلسفة المستقبل » ، صدر في عام ١٨٤٣ . فيـــه عرض فويرباخ مبادىء فلسفته المادية وانتقد فلسفة هيغل المثالية . « جوهر المسيحية » صدر في عـــام ١٨٤١ . وصدرت كتب أخرى له قبل هذا التاريخ .

... « الطبيعة هي كل ما تَرى وليس من صنع يَدَيْ وفكر الانسان . أو ، وصولاً الى تشريح الطبيعة ، انها الكينونة ، أو جملة الكائنات والأشياء التي ليس لحضورها وأفعالها أو آثارها التي تُجلّي وتؤلف بالضبط وجودها وجوهرها أساسٌ هو الفكر أو نوايا وقرارات الارادة ، بل قوى أو أسباب فلكية أو كوسْمية [كونية] ، ميكانيكية ، كيميائية ، فيزيائية ، فيزيولوجية أو عضوية . » (١١٣) .

كل شيء محوَّل هنا الى التعارض بين المادة والروح ، بين الفيزيائي والنفسي (١١٨) . – ضد حجة انه يجب أن يكون هناك سبب أول (= الله) .

« فقط ضيق الانسان وحبه للراحة أو السهولة يضعان محل الزمان الأزليةَ ، ومحل السير الذي لا نهاية له من سبب الى سبب اللانهايةَ ، ومحل الطبيعة التي هي دوماً في فعل الألوهيةَ غير المتحركة ، ومحل الحركة الأزلية السكونَ الأزلي . »

بسبب حاجات ذاتية ، البشر يستبدلون بالعياني المجردَ ، بالحدس المفهومَ ، بالمتعدّد الواحدَ ، بجمع الأسباب الذي لا حدّ له ولا نهاية سبباً واحداً وحيداً (١٢١) . (م ٤)

ولكن هذه المجردات «ليس لها أية قيمة موضوعية وأي وجود موضوعي ، ليس لها أي وجود خارجنا » (١٢٢) . **هـ . ل.** : موضوعي = خارجنا .

... (الطبيعة بلا بداية ولا نهاية . كل شيء فيها هو فعل متبادل ، كل شيء نسبي ، هو في آن سبب ونتيجة ، كل شيء فيها كلّي universel ومتبادل » ... (١٢٦) .

الله ليس له ما يعمله هنا ؛ ص ١٢٦ – ١٢٧ ، حجج بسيطة ضدّه .

... « إن سبب السبب الأول والكلي للأشياء بمعنى الالهيين واللاهوتيين والفلاسفة المعروفين باسم النظرانيين ، – هو عقل الانسان » ... (١٢٧)

« الله هو ... السبب بوجه عـــام ، مفهوم السبب ، كجوهر ُجعل شخصاً ورُفع الى الاستقلال » (١٢٨) .

« الله هو الطبيعة مجرّدة ، أي مشتقـّة من الحدس الحسّي ، مفكـَّرة ، ومحوَّلة الى موضوع أو كائن للفهم ؛ الطبيعة بالمعنى الحقيقي غير المجازي هي الطبيعة المحسوسة ، الواقعية ، كما ُتظهرها لنا الحواس وتمثلهـــا مباشرةً » . (١٣٠) . **هـ . ل** : مباشرة .

الإلهيون [أصحاب مذهب الإله] يرون في الإله سبب الحركة الموجودة في الطبيعة (التي يحوّلونها الى كتلة جامدة * أو مادّة) . (١٣١) . ولكن قوة الإله هي بالواقع **قوة الطبيعة** (١٣١) .

... « وبالفعل نحن لا نعرف خصائص الأشياء إلا بالكيفية التي بهـــا تفعل » ... (١٣٣) .

الإلحـــاد [مذهب لا إله] (١٣٣ — ١٣٤) لا يحذف لا « الـ **ما - بعد الأخلاقي** (= المثل الأعلى ، المثـــالي) » ولا « الـ **ما - بعد الطبيعي** (= الطبيعة) » . (م ٥)

... « الزمان هل هو شيء آخر سوى شكل للعالم ، الكيفية التي بهـا تتعاقب الكائنات والنتائج أو الآثار المفردة للعالم ؟ كيف أستطيع اذن أن أمنح العالم بداية في الزمان ؟ » (١٤٢) . **هـ . ل** : الزمان والعالم . (م ٦)

... « الله ليس العالم إلا في الفكر ... إن الفرق بين الله والعـــالم ليس سوى الفرق بين الروح والحواس، بين الفكر والرؤية المباشرة »...(١٤٢) .

يريدون أن يمثـلوا الله كـكائن موجود خارجنا . ولكنهم ألا يعترفون بذلك عينه بحقيقة الوجود الحسّي ؟ « ألا يعترفون اذن (بهـذه الطريقة أو على هذا النحو) بأنه ليس ثمة وجود خارج الوجود المحسوس ؟ هل لدينا اذن

* inerte ، هامدة ، عاطلة .

إشارة اخرى ، محك آخر ، عن وجود خارجنا ، عن وجود مستقل عن الفكر ، سوى التجربة الحسّية ؟ » (١٤٥) . **هـ . ل**: وجود خارجنا = مستقل عن الفكر . (م ٧)

... « الطبيعة ... مفصولةً عن ماديتها وجسديتها ... هي الله » ... (١٤٦) . **هـ . ل** : NB ، الطبيعةُ مفصولةً ، مستقلةً عن المادة = الله ، NB .

« اشتقاق الطبيعة من الله هو مثل اشتقاق الأصل من الصورة، من النسخة، مثل اشتقاق شيء من فكرة هذا الشيء » (١٤٦) . **هـ . ل** : نظرية الـ « نسخة » copie . (م ٨)

الانسان له كخاصة قدرةُ أن يقلب الأمور (١٤٦) ، أن يرفع المجردات الى الاستقلال – مثلاً **الزمان و المكان** .

« رغم أن الانسان قد جرّد [أخذ تجريدياً ، سحب] الزمان والمكان من الأشياء المكانية والزمانية ، فإنه يفترض مع ذلك لهذه الأشياء ، كأسباب وشروط أولية لوجودها ، المكان والزمان . انه اذن يتخيل أو يتصوّر أن العالم ، أي جمع الأشياء الواقعية ، الماهية ، محتوى العالم ، له أصل في المكان وفي الزمان . حتى عند هيغل ، المادة لا تولد فقط في الزمان والمكان ، بل أيضاً من الزمان والمكان » ... « لذا لا نرى حقاً لماذا الزمان ، مفصولاً عن الأشياء الزمنية ، لا يقام تماثله مع الله » (١٤٧) . **هـ . ل** : الزمان مفصولاً عن الأشياء الزمنية = الله .

... « في الواقع ، بالضبط العكس هو الصحيح ... ليست الأشياء هي التي تفترض المكان والزمان، بل المكان والزمان هما اللذان يفترضان الأشياء ، فالمكانُ أو الامتدادُ يفترض شيئاً ما له امتداد ، والزمانُ الحركةَ – الزمان ليس بالحقيقة سوى مفهوم مشتق من الحركة – الزمانُ يفترض شيئاً ما

يتحرّك . كل شيء مكاني وزماني » ... (١٤٨) . **هـ. ل** : الزمان والمكان . (م ٩)

« إن مسألة معرفة ما اذا كان إله قد خلق العالم ... هي مسألة علاقة الروح الى العالم الحسّي » (١٤٩) – وهي مسألة فلسفية بالغةُ الأهمية والصعوبة ، كلّ تاريخ الفلسفة يدور حول هذه المسألة [**هـ. ل** : انجلس يقول الشيء نفسه في كتابه « **لودفيغ فويرباخ** »] – صراعُ الرواقيين والابيقوريين ، الافلاطونيين والارسطويين ، الريبيين والعقيديين ، في الفلسفة القديمة ، الاسميين والواقعيين في العصور الوسطى ، المثاليين و الـ « واقعيين أو تجربيين » (كذا !) في العصر الحديث (١٥٠) . (م ١٠)

جزئياً ، ان الميل نحو هذه الفلسفة أو تلك يتوقف على طابع الناس (أذهان ُكتبيّة **ضد** أذهان عمليّة) . (م ١١)

« أنا لا أنفي الحكمة ، الخير ، الجمال ؛ أنفي فقط أنها بوصفها مقولات هي كائنات ، سواء كآلهة أو محمولات للإله ، كمُثُل [فِكَر] افلاطونية أو كمفاهيم هيغلية تضع نفسها بنفسها » ... (١٥٥) – إنها ليست موجودة إلا كمحمولات إنسانية (م ١٢) . **هـ. ل** : مادية ضد اللاهوت والمثالية **في المستوى النظري** .

إن سبباً آخر للاعتقاد بالله هو أن الانسان ينقل على الطبيعة فكرة فاعليته الغائية . الطبيعة لها غائية، اذن ُخلقت من قِبل كائن عاقل(١٥٧) . (م ١٣)

« بالحقيقة ، ما يدعوه الانسان غائية الطبيعة ويتصوره أو يفهمه على أنه كذلك ، ليس في الواقع شيئاً آخر سوى وحدة العالم ، تناسق الأسباب والنتائج ، أي في الحاصل الترابط أو التواصل الذي فيه كل شيء في الطبيعة يوجد ويفعل » (١٥٨) . (م ١٤) .

... « كذلك ليس لدينا أسباب توجب علينا أن نتصوّر أن الانسان ، لو كان له حواس أو أعضاء أكثر عدداً ، لعرف عدداً أكبر من خصائص

وأشياء الطبيعة . ليس ثمة شيء أكثر في العالم الخارجي، في الطبيعة اللاعضوية كما في الطبيعة العضوية . الانسان له من الحواس بالضبط ما هو ضروري للقبض على العالم في جملته ، في تمامه . »

هـ . ل : لو كان للانسان مزيد من حواس، هل كان يكتشف أشياء أكثر في الكون ؟ كلا . **هذا هام ضد اللاأدرية** . (م ١٥)

(١٦٥) – ضد ليبغ Liebig * الذي يتحدث عن « الحكمة اللامتناهية » (الله) ... « فويرباخ والعلوم الطبيعية !! NB . انظر اليوم مـــاخ وشركاه » . (م ١٦)

(١٦٩ – ٧٠ – ٧٢) – الطبيعة = جمهورية ؛ الله = ملِك (وردت أكثر من مرة عند فويرباخ) .

(١٨٤ – ١٨٦) – الله كان ملكاً بطريكياً [أبوياً – استبدادياً] ، انه الآن ملك دستوري : انه يحكم ولكن حسب قوانين . (م ١٧)

من أين جاءت **الروح** ؟ يسأل الإلهيون الملحدَ (١٩٢ – ١٩٣) . انهم يحملون عن الطبيعة فكرة بالغة الاحتقار وعن الروح فكرةً رفيعة جـــداً (نبيلة جداً !!!) . **هـ . ل** : NB انظر ديتسغن .

حتى مستشارٌ من مستشاري الحكومة لا يمكن تفسيره مباشرةً بالطبيعة (١٩٣) . **هـ . ل** : spirituel ، خفة روح . **

« الروح تتطور مع الجسد ، مع الحواس ... انها مرتبطة بالحواس ... من أين تأتي الجمجمة ، من أين يأتي الدماغ ، من ذلك أيضاً تأتي الروح ؛ من أين يأتي العضو ، من ذلك أيضاً تأتي وظيفته » (ص ١٩٣) . انظر أعلاه : « الروح **في الرأس** » (م ١٨)

---

* عالم كيمياء عضوية كبير، معاصر لفويرباخ .

** الكلمة الفرنسية في موقعها هنا تماماً ، ما دامت المسألة هي الروح . وكذلك الكلمة العربية ما دامت الروح عند أنصار ماهويّتها لها وزن ...

« حتى الفاعليةُ الروحية هي جسدية » . (١٩٣) . **هـ . ل** : نفس الشيء عند ديتسغن .

إن توليد العالم الجسدي من الروح ، من الله ، هو قبول فكرة خلق العالم ذهاباً من لا شيء — « اذ من أين تأخذ الروح المادة، المواد المادية، إن لم يكن من لا شيء ؟ » (١٩٥) .

... « الطبيعة جسدية ، مـــادية ، حسّية » ... (١٩٦) **هـ . ل** : الطبيعة مادية .

ياكوب بوهم Boehme = « إلهيٌّ مادي » : انه يؤلـّه ليس فقط الروح ، بل أيضاً المادة . عنده ، الله مادي — هذه هي صوفيّته . (١٩٦). (م ١٩)

... « أين تبدأ العينان واليدان ، هنا تنتهي الآ لهة » (١٩٨) .

(الالهيون) « ينسبون الشر في الطبيعة ... الى المـــادة ، أو الى **ضرورة الطبيعة ، الضرورة التي لا مفر منها** » (٢٠٨) . **هـ . ل** : ضرورة **الطبيعة** . (م ٢٠)

(٢٠٩ وسط الصفحة) و (٢١١ وسط الصفحة) « **العالم الطبيعي** » و « **العالم المدني** » civil . **هـ . ل** : بذرة أو جنين من مادية تاريخية. (م٢١)

(٢٢١ — ٢٢٢) فويرباخ يعلن انه هنا في نهاية الجزء الأول (عن الطبيعة كأساس للدين) ، وينتقل الى الجزء الثاني : في « الدين الروحي » تتظـاهر خصائص الروح الانسانية .

(٢٢٧) — « الدين شِعْر » — هذا ما يمكن قوله إذ ان الايمان = نتــاج للخيال . ولكنْ ألستُ اذن (انا ، فويرباخ) حاذقاً للشِعر؟ لا . « لا أحذف الدين إلا **بالقدر** (والتشديد من فويرباخ) الذي هو فيـــه محض نثر **وليس** شعراً » (٢٢٨) . **هـ . ل** : NB .

الفن لا يشترط علينا الاعتراف بأعماله على أنها هي **الواقع** (٢٢٨) . في الدين، خارج الخيال، إن الشعورَ أو العاطفة (٢٥٤)، الجانبَ **العملي**(٢٥٢)،

السعيَ وراء الأفضل، وراء الحماية ، العون، الخ ، لها أهمية بالغة (٢٥٦) ... في الدين يسعى المرء وراء **العزاء** (الإلحـــاد ، على حد قولهم ، محزن ومكدِّر) ...

« والحال، إنها فكرةٌ ترضي أنانية الانسان...فكرة ان الطبيعة **لا تفعل** بضرورة سرمدية وان هناك فوق ضرورة الطبيعة كائناً يحبّ البشر»(٢٥٧). **وفي الجملة التالية** ، « الضرورة **الطبيعية** » لسقوط حجر . هـ. ل : ضرورة الطبيعة .

NB : ص ٢٧٨ في وسطها : **مرتين** ايضاً « ضرورة الطبيعة » .

الدين = الطفلية ، طفولة الانسانية(٢٦١) ، المسيحية جعلت من أخلاقها إلهاً ، خلقت **إلهاً أخلاقياً** (٢٦٦) .

الدين هو الثقافة الابتدائية – يمكن القول : الثقافة هي الدين الحقيقي... (٢٦٦ – ٢٦٧) « ولكن هذا القول تجاوز على الكلمات ، لأن كلمة « دين » ترتبط بهــا دائماً تمثيلاتٌ خرافية ولا إنسانية » (٢٦٧) . هـ. ل : فويرباخ ضد استعمال كلمة دين استعمالاً يتجاوز على معنى الكلمات .

نشيد **للثقافة** * (٢٦٨ – ٢٦٩) .

« وجهةُ نظر سطحية وتأكيدٌ سطحي القولُ بأن الدين ليس له أي تأثير على الحياة ، وبشكل خاص على الحياة العامة ، السياسية » . « ومن جهتي ، لا أشتري بقرش حريةً سياسية تترك الانسان عبداً للدين . » (٢٧٢) . هـ. ل : NB .

الدين فطري عند الانسان = (« هـــذه القضية مترجمة الى لغة ألمانية جيّدة تعني ») = الوسواس ** فطري عند الانسان (٢٧٤) .

---

* culture ، حضارة .

** superstition ، تطيّر ، خرافة .

« بالنسبة للمسيحي ، يوجد سبب حرّ للطبيعة ، سيّد على الطبيعة ، تطيع الطبيعة إرادته وكلامه ، إله ليس مربوطاً بما يُدعى التسلسل السببي ، الضرورة ، السلسلة التي تجمع النتائج والأسباب والأسباب والنتائج، بينما الإلهُ الوثني مربوط بضرورة الطبيعة بل ولا يستطيع أن يحرّر رعاياه من ضرورة الموت القدَرية » (٢٩٢) . (هكذا يردّد فويرباخ بشكل نسقي : ضرورة الطبيعة . ضرورة الطبيعة . NB) .

« ولكن المسيحي يعترف بسبب حرّ لأنه، في رغباته، لا يرتبط بتسلسل وضرورة الطبيعة » (٢٩٢) . (وأيضاً ثلاث مرات في الصفحة نفسها : ضرورة الطبيعة) . و ص ٢٩٣ « ... كل **قوانين أو ضرورات الطبيعة** التي يخضع لها وجود الانسان » ... ٢٩٨ : « سير الطبيعة » . هـ . ل : NB ، NB .

NB « جعل الطبيعة متوقّفة على الله [تابعة له] هو جعل النظام الكلي – الكوني ، الضرورة الطبيعية ، يتوقفان على الارادة [تابعين للارادة] (ص ٣٠٢) و (ص ٣٠٣) « ضرورة الطبيعة » !!

٣١٠ : « ضرورة الطبيعة » . (م ٢٢)

في التمثيلات الدينية ، لدينا ... أمثلة عن « الطريقة التي بها بوجه عام يحوّل الانسان الذاتيَ الى موضوعي، أي يجعل مما ليس موجوداً إلا في فكره، في تمثيله ، في تصوّره [تخيّله] ، شيئاً ما موجوداً **خارج فكره ، تمثيله ، تصوّره** » (٣١٨) . هـ . ل : ما هو **الموضوعي** ؟ (حسب فويرباخ) .

« هكذا المسيحيون ينزعون من جسد الانسان الروحَ ، النفسَ ، ويجعلون من هذه الروح المنزوعة ، المحرومة من جسد ، إلهَهُم » . (٣٢٢).
هـ . ل : الروح محرومة من جسد = الله .

الدين يعطي الانسان مثلاً أعلى . الانسان بحاجة لمثل أعلى ، ولكن لمثل أعلى انساني ، موافق للطبيعة ، وليس لمثل أعلى فوق – الطبيعة :

« ليكن مثلُنا الأعلى لا كائنـــاً مخصِياً ، محروماً من جسد ، مجرداً ، بل الانسان التام ، الواقعي ، الكلي ، الكامل ، المتمدّن » (٣٢٤) .

ملاحظة من لينين : إن **المثل الأعلى لميخايلوفسكي** * ليس سوى أخذ وابتدال هـــذا المثل الأعلى للديمقراطية البرجوازية المتقدمة أو الديمقراطية البرجوازية الثورية .

« ليس لدى الانسان أية فكرة ، أي اشتباه ، عن واقع آخر، عن وجود آخر، سوى الوجود الحسّي ، الفيزيائي » ... (٣٢٤) . هـ . ل : حسّي ، فيزيائي « هذه مماثلة مرموقة » .

« اذا كان المرء لا يخجل من توليد العالم المحسوس ، المادي ، من الفكر أو من ارادة روح ؛ اذا كان لا يخجل من الزعم بأن الأشياء ليست مفكـَّرة لأنها كائنة ، بل هي كائنة لأنها مفكـَّرة ، عندئذ لن يخجل أيضاً من جعلها تنبثق من الكلمة ، لا يخجل من الزعم بأن الكلمات ليست كائنة لأن الأشياء كائنة ، بل بالعكس ان الأشياء ليست كائنة إلا بسبب الكلمات . » (٣٣١).

الله ، بدون خـلود النفس الانسانية ، ليس الله إلا بالاسْم : ... « إن مِثل هذا الإله هو ... إلهُ أكثر من عالم عقلاني ، وهو ليس سوى الطبيعة مجعولة شخصاً ، أو ضرورة الطبيعة ، الكون ، العالم ، وهذا يقيناً لا يمكن توفيقه مع فكرة الخلود . » (٣٣٩) .

الدرس الثلاثون والأخير (ص ٣٤٨ — ٣٦٠) يمكن أن يُنقل بالـكامل تقريباً كمسطرة نموذجية عن إلحاد مستنير ذي صبغة اشتراكية (حول جمهور الفقراء ، الخ ... ، ص ٣٥٥ وسط الصفحة) الخ . والخلاصة : مـا أريده هو أن أجعلكم ، أيها المستمعون الأعزاء ، أن أحوّلـكم

« من أصدقاء للإله الى أصدقاء للبشر ، من مؤمنين الى مفكـِّرين ، من

* ايديولوجي النارودية (= الشعبية) الروسية .

أناس يصلـّون الى أناس يعملون ، من مرشحين للعالم الآخر الى طلبة (تلامذة) هذا العالم ، من مسيحيين هم باعترافهم ذاته « **نصف مَلاك ـ نصف حيوان** » الى **بشر** ، الى بشر **تامّين** » (٣٦٠ نهـــاية) . هـ . ل : التشديدات من فويرباخ .

ثم تأتي **الاضافات و الملاحظات** (٣٦١ — ٤٥٠) .

ثمة هنا كثير من التفاصيل وكثير من الشواهد المكرّرة أحياناً . أترك كل هذا . لا أسجل إلا الشيء الأهم الذي له بعض الفائدة : أساس الأخلاق هو الأنانية (٣٨٢) (« حب الحيـــاة ، المصلحة ، الأنانية ») ... « ليس هناك فقط أنانية فردية ، بل أيضاً أنانية اجتماعية ، أنانية أُسْرةٍ ، هيئـــةٍ حرفيةٍ ، كومونة [بلدة] ، أنانية وطنية » (٣٨٢) . هـ . ل : جنين من مادية التاريخية ! (م ٢٣) .

...« الخير ليس شيئاً سوى ما يستجيب لأنانية كل البشر» ... (٣٨٧).

[هـ . ل : NB NB جنين من مادية تاريخية ، انظر تشرنيشفسكي*] .

« فلنلقِ فقط نظرة على التاريخ ! أين يبدأ في التاريخ طورٌ جديد ؟ انـــه لا يبدأ إلا حيث جمهور أو أكثرية مضطهَدة تغلـّب أنانيتها المبرّرة على الأنانية المستأثِرة لدى أمة أو طبقة — طائفة caste ، حيث طبقاتٌ classes من البشر أو أممٌ بالـــكامل تخرج من ظلام البروليتاريا المحتقَر ، منتصرةً على الاكتفاء المدّعي لأقلية من الخاصة وآتيةً الى نور الشهرة التـــاريخية . وهكذا أيضاً إن أنانية الغالبية المضطهَدة حالياً من البشرية يجب أن تغلـّب

---

* هذا الهامش من لينين يتصل بالمقطع الفويرباخي التـالي .

تشرنيشفسكي (١٨٢٨ — ١٨٨٩) : عملاق الفكر الديمقراطي الثوري الروسي ، أهم رجال جيل المثقفين الثوريين العوام ، مواصل جيل الثوريين النبلاء ، وسلف جيل المثقفين الماركسيين و « العاصفة الحقيقية » (العـــمال والشعب) . في الفلسفة : كان وراء فويرباخ (مع المادية المكافحة) والى حد لا بأس به وراء هيغل . ثمّنه ماركس ولينين دائماً .

حقوقها ، وستفعل ، وستؤسِّس طوراً جديداً من التاريخ . [هـ . ل : NB «اشتراكية» فويرباخ] . ليس المطلوب حذف نبل الثقافة والروح ؛ لا أبداً ! ولكن لا يجوز ان يكون نفر من الناس هم النبـــلاء والآخرون هم العوام ؛ الجميـع يجب – **يجب** على الأقل – أن يبلغوا الثقافة [المدنية] . ليس المطلوب حذف الملكية ، لا ! ، ولكن لا يجوز أن تكون قـلة من البشر هي بالغة الملكيةَ بيـنما الآخرون ليس لهم شيء . **الجميـع** يجب أن يبلغوا الملكية . » (٣٨٧) .

[**ملاحظة لينين** : هـذه الدروس ألقيت من ١٨٤٨/١٢/١ الى ١٨٤٩/٣/٢ (انظر المقدمة ص ٥) . المقدمة مذيّلة بتاريخ ١٨٥١/١/١ . كم كان فويرباخ، **منذ ذلك الحين** (١٨٤٨–١٨٥١) ، **متأخراً** عن **ماركس**(**البيان الشيوعي** ١٨٤٧ ، **الجريدة الراينية الجديدة** ، الخ) وعن **انجلز** (١٨٤٥ : **حـالة** *)] .

أمثلة مستمدة من الكلاسيكيين الذين يستخدمون بلا فرق كلمتَيْ **آلهـة** و **طبيعة** (٣٨٧ – ٣٨٨) ** .

ص ٣٩١ - ٤٠٠ . شرح **ممتاز فلسفي** (وفي نفس الوقت بسيط وواضح) لجوهر الدين .

« إن سرّ الدين ليس فقط ، في نهاية الحساب ، سوى سرّ اجتماع الوعي واللاواعي ، الارادة واللاإرادي ، في كائن واحد » NB . ٣٩١ . الـ **أنـا** والـ **لا أنا** مترابطان بشكل وثيق في الانسان . « ولكن الانسان لا يفهم ولا يطيق عمقه ذاته ولذا فإنه يقسم كينونته الى « أنا » بدون « لا أنا » يدعوه الله ، و « لا – أنا » بدون « أنا » يدعوه طبيعة » (٣٩٥) NB .

---

* المقصود كتاب « حالة الطبقة الكادحة في انكلترة » .

** المقصود بالكلاسيكيين (بشكل خاص) الأدباء اليونان والرومان .

ص ٣٩٧ شاهد ممتاز من سينيك Sénèque * (ضد الملحدين) : انهم يجعلون من الطبيعة إلهاً . صلّ – اشتغِل ! (ص ٤٠٠) . (م ٢٤)

في الدين ، الطبيعة هي الله ، ولكن الطبيعة ككائن مولود من الفكر . « إن سرّ الدين قائم في « تماثل الذاتي والموضوعي » ، أي في وحدة الكائن الانساني والكائن الطبيعي ، الوحـــدة التي هي في الوقت نفسه شيء آخر مختلف تماماً عن الكينونة الواقعية للطبيعة والانسانية » (٤٠٠) . NB .

« إن جهل الانسان لا تُسبَر أغواره وخيـــاله بلا حلاود ؛ إن قوة الطبيعة ، التي يحرمها جهلُنا من أساسها وخيالُنــــا من حدودها ، تصبح قوةَ الله الكلية » (٤٠٣) . هـ . ل : ! sehr gut (جيد جداً !)

... « الجوهر الموضوعي من حيث هو ذاتيٌ ، جوهر الطبيعة من حيث هو مختلف عن الطبيعة ، من حيث هو جوهرٌ انساني ، جوهر الانسان من حيث هو مختلف عن الانسان ، من حيث هو جوهر غير انساني – هذا هو الجوهر الالهي، جوهر الدين، سرّ الصوفية والتأمل المضارب ... » (٤٠٤).
هـ . ل : جيد جداً ! مقطع ممتاز !

التأمل المضارب ، النظرانية ، عنـــد فويرباخ = الفلسفة المثالية NB .

«في الفكر، الانسان يفصل الصفة عن الموصوف** ، الخاصة عن الجوهر... والإله الميتافيزي ليس سوى الخلاصة ، جملة الخصائص الأكثر عمومية المستمدة من الطبيعة، الخلاصة التي، إذ يفصلها الانسان بالضبط عن الكينونة المحسوسة، عن مادة الطبيعة ، فإنه يحوّلهـا من جديد ، بمساعدة خياله ، الى ذات أو كائن مستقل » (٤٠٦) . هـ . ل : NB صحيح وعميق !

* فيلسوف روماني ، رواقي ، أخلاقي ، كاتب ممتاز (ق ١ م) .

** الموصوف : substantif ، حرفياً « الماهوي » .

المنطق يلعب الدور نفسه . (وضوحـــاً يقصد هيغل) : المنطق يحوّل الكينونة ، الجوهر ، الى واقع خاص – « كم هو أحمق الموقف الذي يريـد أن يجعل الوجودَ الميتافيزي وجوداً فيزيائياً، الوجود الذاتي وجوداً موضوعياً، الذي يريد أن يجعل من جديد الوجود المنطقي أو المجرّد وجوداً غير منطقي، وجوداً واقعياً ! » (٤٠٦) . **هـ . ل** : مرموق (ضد هيغل والمثالية) .

« ثمـــة إذن تمزّق وتناقض أبديان بين الكينونة والفكر ؟ » أجل ، في الرأس ؛ ولكن ، في الواقع ، هذا التناقض محلول منذ زمن طويل ؛ لا ريب انه محلول بكيفيةٍ تُوافق الواقعَ لا أفـكارَك المدرسية ؛ بل ، وهذا أكثر، انه محلول بما لا يقل عن خمس حواس » (٤٠٧) . **هـ . ل** : جيداً جداً !

(٤٠٦) « كل ما ليس الله ليس شيئاً، هذا يعني كل ما ليس أنا ليس شيئاً ». **هـ . ل** : جيد .

٤١٩ – ٤٢٣ مقطع ممتاز (شاهد جيد من غاسندي *) : بشكل خاص (٤٢١) **الله** = مجموعة أوصاف (بلا مادة) عن العياني والمجرد . **هـ . ل**: NB .

٤٢٣ « الرأس مجلس ممثلي الكون» [جمعية نواب الكون]. **هـ . ل**: NB .– حين يكون الرأس عندنا ممتلئاً بالمجردات ، بالمفاهيم النوعية – العـامة ** ، عندئذٍ نستنتج بشكل طبيعي « المفرد من العام، أي... الطبيعة من الله » . **هـ . ل** : NB . المفرد و **العـام** ، الطبيعة و الله . NB .

٤٢٤ – ٤٢٥ : الملحوظة رقم ١٦ : لستُ ضد الملَكية الدستورية ، ولكن فقط **الجمهورية الديمقراطية** هي « **مباشرةً** للعقل » شكل الحكومة « الموافق للجوهر الانساني » . **هـ . ل** : ها – ها !!

---

* غاسندي (ق ١٧) فيلسوف فرنسي مادي ، بعث مادية ابيقور ، إحساسيّ ، عارض عقلانية وميتافيزياء ديكارت ...

** générique : من genre الجنس أو النوع – العام ، والتي أعطت كلمة général : العام . (م ٢٥)

... « الكتابة بروح قوامها ، بين أمور أخرى ، افتراض الروح أيضاً عنـــد القارىء ، عدم قول كل شيء ، ترك القارىء يقول لنفسه العلاقات والشروط والتحفظات التي بها فقط تكون جملةٌ من جمل الكلام صالحة وقابلة لأن تفكـَّر » (٤٣٥) . **ه . ل** : صحيح جداً !

ردّ فويرباخ على نقاده ، على الاستاذ **فون شادن** (٤٣٦ — ٤٣٧) وعلى **شالر** ٤٣٨ — ٤٣٩ — ٤٤٩) جدير بالتسجيل :

... « أنا أضع بشكل صريح محل الكينونة الطبيعة ، ومحل الفكر الانسانَ » أي ليس التجريد بل العياني ... السيكولوجيا **الدرامية** (٤٣٧) . **ه . ل** : NB « الكينونة والطبيعة » ، « الفكر والانسان . (م٢٦)

لهذا السبب ، في الفلسفة ، إن صيغة «المبدأ الانتروبولوجي»* التي يستخدمهـــا فويرباخ (م ٢٧) وتشرنيشفْسكي هي صيغة **ضيّقة** . المبدأ الانتروبولوجي ، كالمذهب الطبيعي ، لا يعبّران عن **المادية** إلاّ بشكل غير دقيق وضعيف .

« الجزويتية ** ، النموذج اللاواعي والمثل الأعلى لفلاسفتنا النظرانيين) (٤٤٣) . **ه . ل** : جيد .

« إن الفكر يضع انقطاع الواقع كاتصال، وتعدّد الحياة اللامتناهي كهوية واحدة، كتماثل . إن معرفة الفرق الجوهري الذي لا يُمحى بين الفكر والحياة (أو الواقع) هي بداية كل حكمة في الفكر وفي الحياة . هذا التفريق وحده هو رابطة حقيقية » . (٤٤٦) . **ه . ل** : حول أسس المادية الفلسفية .

نهاية المجلد الثامن .

---

* انتروبولوجيا : نظرية الانسان ، علم الانسان ، انسانولوجيا . من انتروبوس : انسان، و لوجوس : ربط ، عقل ، كلام ، حساب ، الخ ، علـْم ، مذهب ...

** نسبة الى رهبنة الجزويت . الكلمة ذات مدلول تحقيري : خبث ، لؤم ، خداع .

المجلد التاسع = « **ثيوغونيا** » (١٨٥٧) * . يبدو ، عند تصفح هـذا الكتاب ، انه ليس فيه شيء جدير بالاهتمام . ولكن الصفحات ٢٦١ الفقرات ٣٤ ، ٣٦ ، ص ٢٨٣ وبعدها ، يجب أن تُقرأ . لاحظ الفقرة ٣٦،ص٣٣٤ . عند الفحص ، لا شيء مفيد . شواهد وشواهد لإثبات ما قاله فويرباخ سابقاً

ملاحظات :

(١) رغم « الالتباس » الذاتوي لكلمة « قدرة » ، أو الايحاء الذاتوي لهذه الكلمة (بخلاف كلمة ومفهوم « حركة ») ، ورغم التصويف المثالي الذي يمكن أن ينطلق من هذا الالتباس أو الايحاء (الوارد في كلمات أخرى أيضاً ، مثلاً : قوة ، فعل ، فاعلية الخ) ، فإن مفهوم « القدرة » مفهوم صالح علمياً ومجْد ولا غنى عنه . هذا واضح تماماً في نصوص لينين ، في تأكيده الارتباط والتلازم بين « مادة » و « قوة » ، « مادة و فعل » ، وراء (مع) فويرباخ ، ديتسغن ، وفي تثمينه موقف لايبنتس رغم صوفيته ولاهونيته . وإن المادية الماركسية — بخلاف فيزياء ديكارت المادية — تؤكد على الحركة الداخلية، التلقائية، «الذاتية» automouvement ، autodynamique الخ ، وهي — بصدد مذهب القدرة الفلسفي الفيزيائي لأوستفالد أو سواه — تدين بالضبط إلحاق مقولة المادة بمقولة القدرة وتؤكد الإلحاق المعاكس :

* العنوان الكامل لهذا الكتاب (التاسع في المؤلفات الكاملة) هو : « الثيوغونيا ، حسب مصادر العصر الكلاسيكي (أي اليوناني — الروماني) والعبري والمسيحي» . « ثيوغونيا» تختلف عن ثيولوجيا (اللاهوت ، علم الالهيات) في انها تبحث الاصول والنشوء : انها علم ولادة ونشوء الإلهيات .

الحركة ، القوة ، القدرة ، الفعل الخ ، محمول المادة ، صفة كل المادة ؛ ومقولة **المادة** الفلسفية هي المقولة الأولى .

و **بمناسبة** ملاحظة لينين على كلمة قدرة ، لا بأس من الاشارة الى أن كلمة **براكسيس** اليونانية (العمل ، الممارسة) تعني أيضاً قدرة energia ، بينما **براغما** اليونانية أيضاً (العمل ، action ، affaire ، تعني أيضاً « جسم بلا روح » . (— هذا حسب قاموس يوناني صغير ، نفترض انه يعطينا اللغة الشعبية المتداولة) ...

و **البراكسيس** — براكسيس ماركس ، وليس سارتر أو سواه — هي المادية . بينما **البراغماتية** ، مذهب « العمل » الأميركي ، هي المثالية . مفارقة ؟

بل استحالةٌ ولا معنى من وجهة نظر مادية **ميتافيزية** .

وحقيقةٌ خطيرة من وجهة نظر المادية الجدلية والتاريخية .

الممارسة ، العمل ، البراكسيس، فاعلية الانسان العملية الخ ، (والشغل) ، هي سيرورةٌ موضوعيةٌ — فاعلية هادفة أي **ذاتية** واعية الخ . محك الممارسة موضوعي (مطابقة النتائج والتوقعات ، مطابقة الوقائع والصورة الموجّهة ، الموضوعي والذاتي) ؛ المعرفة ذاتية ، الحقيقة موضوعية .

البراغماتية (وليم جيمس الخ) تُغْرِق الحقيقة ، تذوّبها في « العمل » . الممارسة عندها **ليست** محك الحقيقة . لأن الحقيقة (= توافق الفكر والواقع **الموضوعي**) منبوذة . البراغماتية ترفض المسألة الفلسفية الأولى وجوابها المادي (وراء اوغست كونت ، ماخ الخ) وليم جيمس يقيم ثلاثة مستويات أو أشكال لـ « العمل » أو لِـ « التجربة » : تجربة فيزيائية (مادية) ، تجربة سيكولوجية أو فكرية ، تجربة روحية أو دينية . كل منها لها ميدانها ، وتحك نفسها و « حقيقة » ها بنفسها .

وكذلك الأمر في براغماتية **ألتوسر** ، « عدو » البراغماتية « اللدود » ، الذي يبتز الماركسية والماركسيين بخطر البراغماتية . على حد قوله ، هناك

أربع ممارسات : المارسة « الاقتصادية » (؟!) تحك نفسها (تحك **مـــاذا** في نفسها ؟ — حسب التوسر انها لا تحك المعرفة ولا تُنتج معرفة ، وهي جارية بلا فكر؛ والتوسر ألغى مقولة « الفكر» أصلاً ، ألغاها في «تعريفـ» ـه « المارسة َ بوجه عام » ، ألغاها بالتلازم مع إلغاء مقولة « المادة ») ؛ كذلك المارسة «السياسية» (الجارية بلا «وعي») ؛ و كذلك «المارسة» الايديولوجية التي هي نفسها « الايديولوجيا » (وتوازي عند وليم جيمس «التجربة الروحية أو الدينية » ؛ و « المارسة » النظرية وهي نفسها « النظرية » la theorie التي هي « ممارسة بحصر المعنى» وهي وحدها « المعرفة » la Connaissauce . وهذا الإلحاق للنظرية والفلسفة بـ « العلوم » هو تصفية معزّزة للعلاقـة بين النظرية والمارسة، وهي التصفية القائمة أصلاً في تعريف (!) المارسة العام(!) الذي تطاول على ثلاثة سطور ، بدون المـــادة والوعي ، بدون الموضوعي والذاتي ، أي بدون أي شيء . — انظر كتابه : **من أجل ماركس** ، **بحث** « عن الجدل المادي » ، الفقرة ١ ؛ وكتابه : **قراءة رأس المال** ، **بحث** « من رأس المال الى فلسفة ماركس » ، الفقرة ١٧ .

(٢) **سبينوزا** (ق ١٧) فيلسوف مـادي أو مادي — حلولي ، فنّد ثنائية ديكارت ، تجاوزها ، أعلن وجود « ماهية » واحدة هي « الطبيعة » التي هي « سبب ذاتها » ، والفكر محمولها (صفتها) ، والطبيعة (بما انهـا سبب ذاتها) هي الله . أيد البرهان الاونتولوجي أو الكينوني على وجود الله، الذي وضعه آنسليم وأيده كبار الفلاسفة النظرانيين (ديكارت ، مالبرانش ، لايبنتس ، وهيغل) باستثناء كنط الذي دحضه .

وجه الضعف في خط مذهب سبينوزا المـــادي هو : ١) نبذه للثنائيات المعرفيّة المادية والجدلية ، تأكيده « الماهية » بلا « الظاهرة » ، و «الجوهر» بلا « الظاهر » ، و « الضرورة » بلا « عرض » ... هذا نوعاً ما تـكرار متقدم لموقف أو لحظة بارمنيد ... ٢) خلوّه من لحظة الذاتيـــة ، الحرية ،

العمل أو الممارسة ... ٣) هيمنة الهندسة والميكانيك على مذهبه ، إلحاقه طريقة الفلسفة بطريقة الرياضيات (وهـــذا موقف أحادي الجانب ، جزئي تماماً) .

أعلام الماركسية تمنّوا فلسفته ، ماديته، مبدأه الجدلي العظيم « **كل تحديد هو نفي** » ، رؤيته التلِسْكوبية *

(٣) . انظر كتاب انجلز « لودفيغ فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية » .

لا بد من وقفة عند تعريف الطبيعة عند فويرباخ وفي المادية الجدلية التي ارتكزت عليه وعلى أسلافه الماديين .

المادية الجدلية (ماركس ، لينين) استخدمت « طبيعة » بمعنيين اثنين .

معنى رقم ١ ، المعنى الواسع : الطبيعة مقابل الروح ، المـــادة مقابل الوعي ، الكينونة مقابل الفكر = مبدأ **المادية** ، على أساس المنطق **الجدلي** .

معنى رقم ٢ ، المعنى الضيق : الطبيعـــة كشكل أول أولي للسيرورة الموضوعية (ميكانيكية ، كيميائية) ، أي فيما عدا الشكل الثـــاني لهذه السيرورة **الموضوعية** وهو فاعلية الانسان المتخذ **هدفاً** ، حيثُ « الوعي » ، « الذاتي » الخ . = المادية الجدلية والتاريخية . إن فرق ، علاقة ، وحدة ، هذين المعنيين لِـ « طبيعة » ، هو خط المادية الجدلية والتاريخية . وبالتلازم وحدةُ وهويةُ **الذاتي** في العلاقة الأولى (طبيعة – روح ، مـادة – وعي ، موضوعي – ذاتي) والعلاقة الثانية (شكلان للسيرورة **الموضوعية** ، الثاني هو **الذاتي**)**.

المعنيان واضحان في نصوص لينين . وهما واضحان ومصرَّحٌ بهما في نص

* التلسكوب هو المنظار الفلكي .

** والانسان « طبيعة » بالمعنيين ، ولا شيء سوى ذلك .

واحد لماركس (**مدخل ١٨٥٧** ، الفصل الثالث والفصل الرابع) : الطبيعة بدون المجتمع والتاريخ ، أو العوامل المتولّدة من الطبيعة في مقابل العوامل التي صنعها المجتمع والتاريخ ، وغلبة هذه أو تلك حسب الأطوار أو الحقب التاريخية (الفصل الثالث : طريقة علم الاقتصاد السياسي، مقولة الشغل، الخ)، ثم (في الفصل الرابع ، عند الحديث عن الميثولوجيا اليونانية) الطبيعة **أي** كل الموضوعي بما فيه المجتمع والانسان ..

فويرباخ بعيد عن هذا (ولنعترف بأنّ هذا مبلبل في أذهـــان طائفة من المفكرين الماركسيين) . فويرباخ لا يعمل جدياً أو جذرياً بالمقولات . كأنه يسعى الى تعريف لـ « الطبيعة » خارج **العلاقة** ، أو (حتى لا نجحف بحقه) بدون وَسْم العلاقة ، بدون وسْم للثنائية ، (هنا لثنائيّتين) .

وهو يصل الى تعداد لموجودات الطبيعة – المقولة . والحق يقال ان هذا التعداد ثمين . فويرباخ قال : الطبيعـــة هي **الضوء والكهرباء والمغناطيس** والهواء الخ ، بدأ بالضوء والكهرباء والمغناطيس ... وهذا تثبيت أو شرح عظيم لمفهوم **المـــادة** الفلسفي الذي أنضجه تطور عظيم للعلوم وللفلسفة (هيراكليت، بارمنيد* ، ديمقريط ، ... توريشلي، ديكارت ... ، لافوازيه) الذي ثبّته لافوازيه ، الذي صاغه نهائياً انجلس ولينين ، والذي ثبّته أعظم تثبيت فيزياء القرن العشرين (آينشتاين وكل الآخرين) .

بخصوص فتوح هذه الفيزياء ، من المعلوم ان بعض الفلاسفة – العلمـــاء الماركسيين يميزون معنيين لمفهوم المادة : معنى فلسفي أو واسع (كل المادة ، بما فيها الفوتون – الضَوْءُون – والالكترون – الكهروب – ، بما فيهـــا « الحقل » ، ما ليس ذرّة ، بما فيهـــا ما كان يُدْعى « الأثير ») ومعنى فيزيائي (**علم الفيزياء**) أو ضيق (أي الأجسام المؤلفـة من ذرات ، الذرة

* ومعه الفيثاغوريون البالغو المثالية ، الرياضيون ، الذين عارضوا فكرة « الفراغ » .

وما يتألف من ذرات) . **فلسفياً** ، يمكن (أو يجب ؟) أن نتجاهل هذا المعنى الثاني .

(٤) « الحاجات الذاتية » هي ، شرعاً وقطعاً ، حاجات العمل والحياة والمعرفة ، حاجات الفاعلية العملية وعنصرها المقابل والذي « ينفصل » : الوعي ، الفكر ، المعرفة . والتجريدات الجدية لها قيمة موضوعية . انها ليست كائنات des êtres ، أشياء ، هي تحديدات للكائنات ، للاشياء ، انها مفاهيم ، أسماء ، **اذن** أنواع الأشياء ، قوانين الطبيعة ... بالطبع هذا ليس **غائباً** فن فويرباخ : له هنا مأثرة الانتقال من فكرة الله والخلق الى مسألة الخاص والعام التي هي الجذر العرفي ؛ وهذا سيتوضح أكثر بعد قليل .

وسنرى المسألة عند لينين بصدد كتاب أرسطو وفي أماكن اخرى ...

(٥) لا بأس من التذكير بأن idéal (المثالي ، المثل الأعلى) من idée فكرة ، « مثال ») . ثمة صلاتٌ أساسية (**تختلف** بين لغة وأخرى) بين : فكرة ، فكر ، مفهوم ، صورة ، تصوّر ، « مثال » ، مثالية ، شكل ، تمثال ، تشكيل الخ ...

(٦) الزمان شكل للعالم ، صفة تعاقب الكائنات ، نمط وجود المادة المتحركة ، نمط كلي شامل . والمثالية قلْب . تجرّد الزمان ، تضعه قبل الكينونة – الصيرورة ، قبل المادة – الحركة ، وتمنح المادة بداية في الزمان ؛ وكأن الزمان عُلبة ُوضعت فيها الطبيعة المتغيرة ...

(٧) الكينونة كائنة ، الماهية مادّة . والمثالية من حيث تعي أو لا تعي تثبّت موقفنا المادي . « روح » لها كينونة ، ماهية ، و في بعضها (بعض المثالية) حسيّة ، محسوسة ، وفي بعضها (بعض المثالية) لها وزن ، ُتوزن ، ُوزنت !!

(٨) نظرية الصورة ، النسخة ، الخ هي مبدأ المادية . **ضد المثالية** ،

نقول : الفكر صورة ، نسخة ، بل و نقول : صورة في مرآة ، وصورة فوتوغرافية .

ضد المادية غير الجدلية وغير التاريخية ، نقول : الفكر صورة نوعية ، نسخ انكساري ، التوائي ، موسّط ، ليس صورة في مرآة ، ليس صورة فوتوغرافية (الصورة الفوتوغرافية «العيانية» هي سطح ، وعزل ، وتجريد . لا تنفذ الى العمق ، الى العلاقة الخ) .

ونشير الى كلمة Bild الالمانية (صورة ، لوحة ، الخ ... ومنها كلمات ألمانية تعني : فنون تشكيلية ، ثقافة ومدنية ، وجميل جداً الخ الخ) . الـ Bildentheorie = نظرية الانعكاس أو الانعكاس – الانكسار Réfraction. وحسب لينين ، إن مصيبة المادية السابقة انها لا تعرف تطبيق الديالكتيك على نظرية الانعكاس هذه .

الفكر **انعكاس** . مبدأ المادية ، ضد المثالية ، وضد المادية المبتذلة أيضاً .

والفكر **انعكاس نوعي** ، **مفهومي الخ** . ضد المادية اللاجدلية ، التجريبيّة الخ .

والفكر – الانعكاس هو أيضاً استباق anticipation : **الصورة** التي في رأس الشغيل تستبق و **ترشِد** عمله . وكذلك **الحلم** الجدي عند لينين وبيساريف (في **ما العمل** ؟ وفي تعليق لينين على كتاب **ارسطو**) : الحلم تابع لإمارة المعطى الثاني، السيكولوجي، **مقولة** الفكر أو الوعي أو الروح، المقولة الفلسفية الأولى في العلاقة مع المادة – الكينونة – الطبيعة – المعطى الاولى وفي العلاقة مع الفاعلية **الهادفة** ... الحقوق الرومانية **تستبق** المجتمع البرجوازي الحديث وتسلح نموّه ضد الاقطاعية الخ .

(٩) الزمان والمكان شكل وجود المادة ، صفة كلية للأشياء المتحركة . المادة ممتدة ، الكون أو الكائن مكانيّ . المادة متغيرة ، الأشياء والظاهرات تتعاقب الخ .

الزمان والمكان تابعان وملازمان للمادة المتحركة . في **نظرية المعرفة** : أولاً مقولة المادة ومقولة الحركة ثم مقولتا الزمان والمكان .

هاتان المقولتان الكلّيتان جعلهما المثالي الذاتي **كَنْط** مقولتين ذاتيتين ، ومنطقه : الزمان والمكان كليان ، عامان ؛ لذا (حسب رأيه) لا يمكن ان تأتيا الينا من الخارج ، بل أتتا الينا من الأداة المعرفية ، من الذات المدرِكة ، انهما مقولتان قبْليّتان ، كذلك السببية (بما انها أيضاً عامة ، كلية) . العقل، الفكر، الروح، باتَ ماهيةً حاملة مقولاتها وأنماطها الذاتية، وعمليةُ المعرفة، بما أنها التقاء بين هذه الماهية العامة الجوهرية وبين الواقع المستقل أو « الشيء في ذاته » ؛ فإنها لا تستطيع ان تبلغ هـذا « الشيء في ذاته » ، ان تبلغ الموضوعي الجوهري ؛ إننا نعرف الظاهرات فقط ، أو « الأشياء لنـا » ، « الأشياء كما تبدو لنا » .

إن الممارسة (حصول النتيجة المتوقعة أو عدم حصولها ، مثـال صنع الآليزارين أو أي مثال آخر) تدحض دعوى كنط (هيغل ، انجلز ، لينين) : اننـا نبلغ « الشيء في ذاته » ، ومسيرة المعرفة هي سير تعمّق لا نهاية له . والمقولات الكلية لا « تأتينا » بل نحن نسحبها ، نشتقها ، وهـذه العملية تدعى التجريد . وأية معرفة هي معرفة الخاص — العام ، و الفرد — الكلي. أي شيء خاص ومفرد وبالغ الخصوصية له حكماً طابع أو صفة (أو صفات) من عمومية : هكذا الكينونة أمامنا . زعم كنط أن العام أو الكلي ليس له وجود في الخارج مصادَرة أو مسلـّمة غير مسوّغة ، وهي مـا يحتاج الى تسويغ من قِبَله . إن **وجه** المشروعية في المصادرة ، أو بالأحرى المشروع الذي **وراء** كنط هو أن أي مفهوم بدءاً من « الطاولة بوجه عـام » وصولاً الى السببية والزمان والمكان ليس كائنـاً من الكائنات un être ، ولكنه كائن il est بمعنى آخر : انه تحديد لعدد كبير (لا يُعدُّ) من الكائنات . والمفهوم الأبدأ في نظرية المعرفة هو المادة والحركة ، أو الكينونة المـادية المتغيرة ؛ بعده الزمان والمكان ، الملازمان كائنياً للمفهوم الأول .

إن نظرية النسبية (آينشتاين) أعظم تثبيت لخط المادية الجدلية في مـا يتصل بالمادة والحركة والسببية والزمان والمكان .

١) ربطت الزمان والمكان في « الزمان – المكان » . هذا بلا شك تقدّم على موقف ماركس وانجلز ولينين ، وهو إنمـاء جدلي مادي عظيم استوعبته الفلسفة الماركسية .

٢) ثبتت إتباع الزمان والمكان للمادة – الحركة ، عزّزت الربط والتلازم .

نفت فكرة الأثير من حيث هو (عند فيزيائيي القرن الماضي) وَسَطٌ كوني ساكن جامـد ، و **واصلت** فكرة الأثير من حيث هي تأكيد لعدم وجود « الفراغ » ، الفراغ المطلق ، المكان الفارغ .

الهندسة في المكان géonétrie dans l'espace ندعوهـا (بحق) « الهندسة الفراغية » . المكان مقولة ، تجريد . علم الهندسة قام على أساس هذا التجريد العظيم ، جعل هذه المقولة الكلية موضوعه ومادته . (كذلك علم الحساب مع العدد . كذلك بوجه عام الرياضيات مع الكمّ) .

الفراغ المطلق ليس موجوداً . هذه بديهية بارمندية (عدم وجود العدم). العصر الوسيط قال « الطبيعة تكره أو تستفظع الفراغ » ، وتوريشلي أثبت الهواء ، الضغط الجوي . فيزيائيو القرن التاسع عشر قالوا « الأثير » الساكن جوهرياً وأصلاً ولكنه يحرّك ، تأتيه الحركة . فيزياء القرن العشرين نبذت شطراً وأكدت شطراً ، واصلت مسيرة العلم ، المعرفـة ، التصوّر المادي للعالم .

إن فكرة الفراغ – العدم ، المكان الخاوي ، فكرة شرقية وعالمية . ولعلهـا ملازمة لغالبية الأذهان في الشرق والغرب . هذه الفكرة المثالية (التي تفصل الصفة عن الموصوف، وتجعل الصفة موصوفاً أو ماهية substantif) لها أثرها الواضح في عقل « ثوّار » العرب : أمامهم، خارج رأسهم، الفراغ،

وهم يملؤونه ، يَخْلقون – يخلقون من العدم ، لا يصنعون (لا يحوّلون) . بعضهم ينتهي الى تقليص « الفراغ » في ذهنه ، الى توسيع الكائن المادي على حساب الفراغ ، والى شغل مكانٍ أو احتلال محلٍ في القسم البـــاقي الفارغ والذي ينتظرُهُ . بالحقيقة ، هذه ليست (لم تكن) نهاية بل كانت البداية : في الانطلاق ، لم يؤمنوا (وليس بالامكان أن يؤمن أحد) بفراغ عام شامل. بين تجريد المكان الاقليدي العظيم والربط الفيزيائي والفلسفي ، إن خط الضياع واللاجدوى هو خط الاختلاط .

« **الحركة نمط وجود المادة** . في أي زمن أو مكان ، لم توجد أبداً مـادة بلا حركة ، ولا يمكن أن توجد » (انجلز) . و **الحركة** فلسفياً ليست فقط انتقـــال شيء في المكان بل هي التغير ، التحوّل ، ولادة وزوال كل الأشياء والأجزاء . السكون نسبي . المادة متنوعة وأشكال حركتها متنوعة .

حركة المادة حاصلة في **الزمان والمكان** ، اللذين ليسا علبة حاوية المادة ، بل هما **شكل** عام لوجود المادة وحركتها . لا توجد ولا يمكن أن توجد مادة ليس لها صفة الامتداد وصفة التعاقب ، الصفة المكانية والزمانية .

المادة موجودة وجوداً لا حدّ له، لا نهاية له ؛ الالكترون لا يستنفَد... الكينونة – المادة – الطبيعة في جملتها أو مجموعها لا نهاية لهـا في العمق ، في الاتساع ، الى الوراء (ماض) والأمام (مستقبل) .

إن التلسكوبات الحالية (حسب كتاب صادر قبل ١٠ سنوات) سمحت باكتشاف منظومات نجوم تقـع على مسافة مليارات من السنوات الضوئية ، أي أن ضوءها يحتاج لكي يصل الينا الى مليارات من السنين، علماً بأن سرعة الضوء هي ٣٠٠ الف كيلومتراً في الثانية . بالطبـع هـذا صعبٌ تصوّره ، تمثيله . انـه ليس للتمثيل . سرعة الضوء (٣٠٠ الف كم/ثا) ليست للتمثيل الحسّي ، بالأحرى **مليارات** من **السنين الضوئية** . وبالأحرى (!) مفهـــوم لا محدودية الكون أو الكوسموس . هذه الأمور ليست للتمثيل بل للعقل

(هيغل ، انجلز) ، للعلم ، للفلسفة . أمـا الهوّة بين مسافة مليارات السنين الضوئية و لا محدودية الكون فهي سحيقة .

عمر « الانسان العاقل » — أي نوعنا البشري الحاضر— يقدّر بخمسين الى سبعين الف سنة . وتاريخ البشريات — الأنواع الانسانية المتعاقبة — يبدأ قبل مليون سنة (والأشكال الدنيـا تُدفَع أحياناً الى مثْلي هذه المدة) . الأشكال الأولية الأصلية للحياة النباتية والحيوانية تبدأ منـذ نيف ومليار سنة . والأرض عمرها مليارات . وهي ليست إلا الأرض . ... نستطيع أن نواصل . ولكن تبقى الهوة التي لا تردَم ... .

ولكن **وجود** المادة اللامحدود ليس هـذا فقط ، ليس لا محدودية **الكون** Univers فقط ، بل هو أيضاً تبعية المكان (والزمان) المطلقة **للمادة** وحـذف فكرة الفراغ (الفراغ المطلق) . الكينونة (الكائن) ، المادة ، الفيزيائي ، شيء واحد ، و العدم ليس موجوداً . الكائن كائن ، موجود ، **أي** « مليء » . مقولة المكان الكلية المطلقة * هي تجريد عـن ولِ بهذا الامتلاء ذاته .

« العدم » الهيراكليتي ومفهوم الفراغ الديموقريطي يلازمان أو يكمّلان الكينونة والذرات ، يقيمان التغيّر والحركة (حركة المادة ، « حركة الذرات في الفراغ » ، الميكانيك **) ، يمثّلان لحظـة **السلب** أو **النفي** الهيغلية — الماركسية ، ولا يقيمان من وجهة نظر المادية الجدلية ، العدم والفراغ .

(١٠) . فويرباخ دخل المسألة الكبرى وجذرها المعرفي (علاقة العـام والخاص) . المسألة صعبة جداً وبسيطة جداً . سوف نرى بساطة لينين .

---

* مطلقة بمعنى ، ونسبية بمعنى آخر . كذلك الزمان . هذا أيضـاً من نتائج فيزياء آينشتاين .

** الميكانيك السلطان من ديمقريط وارخميدس الى الميكانيكا التموّجية عبر غاليليو ونيوتن وديكارت . هذا خط جبّار وبالغ الايجابية ...

الرواقيون (مدرسة فلسفية مثالية) كانوا يعتبرون العقل أو **اللوجوس** بمثابة المبدأ الأساسي للعالم .

ولكن قبل لوجوس الرواقيين وغيرهم من المثاليين، نجد لوجوس هيراكليت، اللوجوس المادي الجدلي . وقبله ، في ما قبل اليونان والغلسفة ، نجد في الشرق براهما – الإله الكلمة .. كلمة لوجوس = ربط ، عقل ، نطق ، لغة (منطق)، حساب . نوعاً ما ، كل الفلسفة وراء اللوجوس : الفكر الذي يعي انه الفكر أي الانعكاس و الانعكاس النوعي (مفاهيم ، قبض على العام ، على الأشكال و التحديدات الخ ، بالكلمات ، بالأسماء) والفكر الذي لا يعي ، الذي يقيم الفكرانية أو المثالية ، الذي يفصل الصفة عن الموصوف (ولا يعي الفصل)، الذي يفصل الشكل عن المحتوى ، الكم عن الكيف ، العام عن الخاص ، الكلمات عن الأشياء ، الذي يقيم مذهب سحرية اللغة الخ .

الفلسفة الابيقورية عارضت الرواقية واعتبرت ان مبدأ العالم هو الذرات والفراغ . وهذا كان موقف ديمقريط ، ثم ابيقور ، أي موقف المادية الاغريقية ، الذي تواصل عبر التاريخ إلى المادية الحديثة (لوكربس ... فيزياء ديكارت ، غاسندي ، المادية التجربية والاحساسية الخ) في معارضة خط أفلاطون (المثالية وبشكل خاص « المثالية الموضوعية » التي تجعل الفِكَر كائنات . ولوجوس هيغل هو حسن الختام) .

الريبية في العصر القديم كانت تدعو الى الامتناع عن أي حكم والقبول بالعادات والتقاليد والمعتقدات القائمة أو التكيّف معها من أجل الحياة . نفت الحقيقة . ولكن ثمة في موقفها ونقدها للعقيدية أو الدوغمائية عنصر جدلي بالغ الأهمية ثمّنه أعلام الماركسية دوماً .

العقيدية أو الدوغمائية لفظ أطلقه الريبيون على خصومهم أي على أنصار الحقيقة سواء كانوا ماديين أو مثاليين (افلاطون) .

ومن المناسب أن نذكر ان لينين (في « المادية والتجربية النقدية »)

يضع افلاطون في سلّة خصوم الحقيقة (وهو أكبر المدافعين عنها من وجهة نظره ونظر خطه) لأن الحقيقة موضوعية أي انها توافق المعرفة مع الواقع ، وليست حلّ الواقع في المعرفة ، والكائنات في المقولات ، والأشيـــاء في الفِـكَر – المثُل . والدوغمائية لفظ تطلقه الفلسفة البرجوازية المعاصرة على المادية على هـــذا الأساس ذاته : هذه الفلسفة ، ايديولوجيا برجوازية عصر انحطاطها ، تنبذ المادية والحقيقة ؛ عندها ، الحقيقة ليست توافق الفكر مع الموضوعي ، الحقيقة بين مزدوجين (= البراغماتية) ، الماديون دوغمائيون واستبداديون ما داموا يؤكدون وجود الأشيـاء المستقل وضرورة نسخها الأمين .

في العصر الوسيط ، « **الواقعيون** » أعلنوا وراء أفلاطون ان الفِكْرة (مثلاً فكرة « الحصان ») هي الواقع ، هي الكائن الحق . **الاسْميون** عارضوهم : الأحصنة الحسّية المتعددة المختلفة الخ هي الواقع ، و « الحصان » (فكرة الحصان ، الحصان بوجه عام) هو اسْم . الاسْميون هم **الماديون** . وهذه **اللحظة** بالغة الأهمية (والبساطة) في تاريخ اوروبا . **المفهوميون** (« الحصان » مفهوم) كانوا في الوسط بين الفريقين ، حاولوا أن يتخطوا الموقفين بشكل وآخر ، وهم **بمعنى ما** أقرب إلى موقفنـا ، ولكن مواقفهم يكتنفها الاختلاط (كذلك أرسطو الذي عارض افلاطون ، معارضة مادية). أولاً يجب أن تُحسَم هذه النقطة : فكرة الحصان اسم ، ليست كائنـاً . (وهذا = المادية) . وثانياً (وراء هيبوقراط ، مؤسس علم الطبّ وتلميذ هيراكليت) : الاسماء قوانين الطبيعة .

في نهاية الجملة (– المثاليين والـ « واقعيين أو تجربيين » –) لينين يسخر من تسمية فويرباخ ، من إحلاله « واقعيين أو تجربيين » محل **ماديين** .

أولاً ، كلمة « واقعيين » دلـّت قبل قليل (العصر الوسيط) على المثاليين، وهـا هي الآن (العصر الحديث) تدلّ على الماديين ... الفلسفة البرجوازية

في زمننا تفعل نفس الشيء (في الكتب المدرسية ، الجامعية) . وهذه التسمية للماديين (« واقعيين ») غير مقبولة : نتحدث عن واقع ذاتي ، نفسي ، روحي ، وعن واقع موضوعي ، فيزيائي ، مادي . كلمة « واقعية » لفصل المعسكَرين غير مطابقة ، غير مناسبة ...

ثانياً ، كذلك لا يقبل لينين تعادل **مادية = تجربية** ، وهو هنا وارد عند فويرباخ ، وهو وارد عند هيغل بشكل متكرّر . حقيقة ان المادية **كانت** تجربيّة empirist لا يحجب حقيقة ان كل التجربية لم تكن مادية ، بدليل **بركلي** ! وفي زمننا المذاهب التجربية والوضعية الخ هي **مثالية** .

(١١) هذا تراجع ، واحتمال لفلفة للمسألة المعرفية الفلسفية ، لمسألة **الجذر** المعرفي .

والبراغماتية ترتبط بأذهان « عملية » . هذه الكلمة لا تغني ولا تسمن من جوع .

(١٢) فويرباخ **لمس** هنا نقطة أساسية في محاججة المثالية ، في لعبها . المثالية ترفع لواء هذا النوع من المقولات ، هذه المقولات العليا الأخلاقية الجمالية : حكمة ، خير ، جمال ، فضيلة الخ . المادية تردّ بلسان فويرباخ : أهلاً وسهلاً ! هذه محمولات انسانية؛ ونضيف : ودنيوية ونسبية ولها معارضها الجدلي أمامنا : جنون (مثالية) ، شر ، قبح ، رذيلة ولينين يقول : من فضلكم ، أولاً مفهوم الحصان ، فكرة البيت ، مقولة الطاولة . هذه أيضاً « مقولات » مثلها مثل لوجوس، لاهوت ، ديالكتيك ، خير، جمال، شر... وعظمة أفلاطون وأرسطو والاسميين والواقعيين أنهم تحاربوا على قضية **«الحصان»** ... ولينين يعود أو يرتدّ أو ينتكس، يَرجع ويُرجع (يُرجِعنا) الى الحصان والبيت والطاولة ، وذلك قبل اوكتوبر بسنوات ثلاث !

« كمُثُل افلاطونية أو كمفاهيم هيغلية تضع نفسها بنفسها » : إن فويرباخ يعارض هذه « المثالية الموضوعية » ، يعارض بحق مثالية هيغل . ولكنه ألم يرمِ جدل هيغل ؟

فلتضَع المفاهيم نفسها بنفسها ! هذا يمكن أن يكون أيضـاً **منطق** « رأس المال » و **منطق** لينين ، المنطق الجدلي المـادي وراء **طريقة** هيغل ، مصحّحة ، محرّرة من التصويف . اي مع التأكيد الأولي ان الواقع أمامنا ، خارج الرأس الناظر النظري ، وأن هذا الرأس ينسخه ، **يُعيد** إنتاجه (لا ينتجه) ، وان الادراك والتمثيل الحسيين هما السبل الناقلة للعالم الخارجي طوال عملية المعرفة . هذا فحوى مجادلة ماركس مع هيغل (**مدخل ١٨٥٧** ، الفصل الثالث) و خلاصة لينين **لمنطق** هيغل ...

في نهـاية البحث ، يؤكد فويرباخ « الفرق الذي لا يمحى » بين الكينونة والفكر . ولكنه في غياب الجدل لم يفرق جيداً ، لم يفصل جيداً الكينونة والفكر ، الواقع ومسيرة المعرفة العلمية الفلسفية العميقة الحية ، وهو بالتالي لا يستطيع أن **يسير نحو** تماثل الفكر والكينونة ، المعرفة والواقع ، الذاتي والموضوعي .

(١٣) هذا أساس البرهان الغائي أو الطبيعي – الغائي . وهو برهان شعبي ، موجود في ذهن الجمهور ، وقد أيده **بعض** الفلاسفة ، ولكن عارضه بقوة فيلسوف مسيحي متطرّف من طراز **الأسقف مالبرانش** : اعتبره تخفيضاً لله ، ونوعاً من كفر . الجزويت وهم « عَمَليّون » اصطدموا معه ...

بوجه الاجمال ، هذا البرهان الشعبي يأخذ شواهده عن « الإعجاز » من حركة الأفلاك السماوية ، أو من عمل جهاز الهضم والأجهزة العضوية ، أحياناً من الأجسام البلورية البديعة . (و « الغاية » يمكن أن تكون – حسب حَمَلَة البرهان – لصالح الانسان ، أو لصالح شيء آخر ، أو لصالح الله ...) . ولكن يمكن ان نعطي كشاهد على « الإعجاز » أموراً من نوع تمدّد الحديد بنسبة محدّدة تحت تأثير الحرارة ، أو سقوط جسم حسب قانون ، أو صعود الدخان ، الخ ... وهذا ما يفعله بعض مدرّسي العلوم في الابتدائي والثانوي (ليس في أوروبا) . الريبيون الحديثون وطائفة من المفكرين والأدباء سلّطوا

نقداً لاذعاً على هذا البرهان : « القطط ُخلقت لتأكل الفئران والفئران لتؤكل من قِبَل القطط والجميع ليسبّحوا بمجد الله » . هذا الردّ في محله تماماً ما دام شعراء البرهان (روسو ، برنادين دو سان بيار) قالوا صادقين : « البطيخة خُلِقت معمولة في شكل أحزاز كي تؤكل ضمن الأسْرة » (الأسْرة الفرنسية كانت متعددة الأفراد) .

مـــا هي الحكمة من وجود الشر ، القبح ، الجريمة ، التشوّه الولادي ، الألم الخ ؟ مـا هي الحكمة من وجود النمر ؟ ولكن لندع النمر . ولنبق مع الشر والقبح ... لايبنتس ، فولتير ، دوستويفسكي ، طائفة متنوعة من أدباء وفلاسفة – مسيحيين ، إلهيين غير مسيحيين ، مسيحيين شبـــه ملحدين – تركوا **أدبـاً** رائعاً ، متضارباً ، متمزّقاً الخ . هذا لا يغيّر شيئاً من القضية **الفلسفية** : الطبيعة هي ميدان السببية (أسباب ⟵ نتائج ، قوانين ، نظام ، ضرورة الخ) . ولكن الانسان – كما قـال فويرباخ – ينقل فاعليته الغائية الى الطبيعة . والمثالية كلها إحيائية animisme .

(١٤) المثالية تضنّ على **الطبيعة** بالنظام ، ... ُتلحق النظـام بالغائية . مع ان الغاية في ميداننا الانساني لا تبدو مصدر نظام !

(١٥) هذا موقف ثمين .

وبالضبط إن أعضاء الحواس هي أيضاً بنت الطبيعة . إن تكوّن العين يرتبط بالشمس ، بالضوء . (والعين الانسانية ترتبط بالعمـــل والتاريخ الانسانيين) .

لنكولن بارنت ، شارح فيزياء آينشتاين ، ومنظـّرها الفلسفي ، حامل لواء بركلي وهيوم (ولوك ، وديموقريط) ، يلعب على هذه النقطة ، وكأنه يريد َعيْناً تتأثر بموجات الضوء خارج الحدّين المعلومين !؟

بالضبط ، إن علم الفيزياء يثبت ان المنبه متجاوز الاحساس ، ان الشيء ليس الاحساس ، ان بركلي على ضلال ، ... وان الموقف التجربي أو الاحساسي قاصر .

(١٦) واضح ان عالم الكيمياء العضوية نقل البرهـان الغائي الى ميدانه . مرة أخرى : لا فرق ، من **هذه** الناحية ، بين دقة ما رآه ليبيغ ودقة سقوط جسم على الأرض أو دقة (أو عدم دقة) طيران دخان السيكارة (ضرورة وعرض) .

(١٧) هذه نقطة هامة في تاريخ الانسان وعمله ومعرفته .

الدين (فكرة الإله والخلق ...) **من حيث هو** انقلاب على الإحيائية البدائية وما شابهها ، نَزَع صفة القداسة والتحريم والسحر عن الاشياء، وكان ذلك شرطاً لدراستهـا علْمياً ، وأساساً لتسليمها للعقل الانساني . ثنائية ديكارت (ق ١٧) كرّرت هـذه العملية في مستوى جديد ، ضد العصور الوسطى (المنتكِسة الى « الروحية » والسحرية والإحيائية) .

في القرن الثالث عشر ، أعلن **توما الاكويني** فكرة « النظـام الطبيعي » ظل « النظام الإلهي » . وهذا تشريع آخر للعقل والعلْم . (وتوما عرّف الانسان بأنه يد وعقل.هذا التعريف العظيم وارد عند الأقدمين، آنا كسيماندر وغيره) . مبدئياً ، إن فكرة « النظـام الطبيعي » تلغي « المعجزة » التي هي بحكم التعريف شذوذ عن النظـام . في الموقف اللاهوتي ، المسألة محلولة سلفاً : الذي وضع النظـام يستطيع أن يحقق شذوذاً عليه (ولكن ألم ينتهِ الخلق ؟) ، والشذوذ هو تذكير بالنظام وصانعه . **نظرياً** ، يكون معنـا : النظام إعجاز والمعجزة إعجاز؛ سقوط الحجر إعجاز ، وارتفاعه (لو حصل) إعجاز (وهذا فعلاً إعجاز ، أما المجموع فهو تعجيز) . **تاريخياً** ، موقف توما خطوة هائلة إلى الأمام (بالمقارنة مع ترتوليان أو أوغسطين) .

عند **اوغسطين** (ق ٤ — ٥) ، التاريخ إعجـاز دائم ، الله يسيّره مباشرة ...

الاسقف **بوسويه** (ق ١٧) ينسف هذا الموقف : الله هو السبب الأول وهو يفعل فعله **عبر** أسباب ثانية ؛ التاريخ خاضع لسببية ، لقوانين ، انه قابل للفهم الخ ...

وهذا الخط يتواصل في صراع حاد ...

(١٨) « في الرأس » – «خارج الرأس» هو أيضاً تقابل مقولتي الأساس: فكر – كينونة ، روح – طبيعة الخ . (انظر **مدخل** ١٨٥٧ ، الفصل الثالث) .

(١٩) ياكوب **بوهم** (أوائل القرن ١٧) ، سيد حرفة صناعة الأحذية ، متصوّف ، « أبو الفلسفة الالمانيــة » ، رائد فلسفة العصر الحديث ، باعث الديالكتيك : نعم يقتضي لا ، والمادة حيّة فاعلة . ماركس وانجلز أشارا إلى مآثره . سبينوزا ، لايبنتس ، شيلنغ ، هيغــل ، شوبنهاور الخ تحت تأثير جوانب مختلفة في مذهبه .

(٢٠) « ضرورة **الطبيعة** » . الضرورة مقولة تابعة وملازمة .

(٢١) بذرة المادية التاريخية أكبر عند هيغل، وبكثير . (هذا ما رأيناه في خلاصة **منطق** هيغل ، وما سنراه أيضاً في هذه المجموعة) . هذا يرتبط بجدل هيغل ، وبوظيفة وموقع **الممارسة** في هــذا الجدل أو المنطق أو نظرية المعرفة .

(٢٢) **الضرورة** لها في المادية الجدلية والتاريخية معنيان :

آ – ١) السببية بالمعنى الجدلي = الترابط الكلي . وهو معنى شامل .

٢) الضرورة – الحتمية في مقابل العرَض .

المعنى الأول ، الواسع ، يشمل اذن الضرورة – الحتمية والعرض . العلم لا يمكن أن يستغني عن مقولة العرض . ولكن العرضي ليس شيئاً أو حادثاً « لا سبب له » ، خارج الترابط الكلي ...

إن الفيزياء الحديثة تثبّت هــذا التوسيع الهيغلي – الماركسي . حساب الاحتمالات ، الطريقة الإحصائية ، بسطٌ سابق ، رياضيٌ ، يُمْسِك على الواقع المادي ... الأسبــاب متعددة ؛ الميادين ، المستويات ، الأجزاء **مستقلة نسبياً** .

ب – **الحرية** هي **وعي** الضرورة . الحرية مقولة ملازمة **للذاتية** التي هي تعيين لفاعلية الانسان **الهادفة** .

المادية السابقة لماركس ولجدل هيغل تحذف العرض ، و ، تحذف الحرية . هكذا سبينوزا بشكل خاص،ومادية القرن الثامن عشر . ولكن هذه المادية حين تتصدى لعمل تاريخي من طراز إعداد الثورة تجد نفسهـــا مضطرةً إلى التحوّل إلى مثالية تاريخية تعلن ان الوعي يسيّر التاريخ وان الحرية تقلب العالم ..

(٢٣) « أنانية أسْرة ، هيئة حرْفة ، كومونة (مدينة) ، وطن » . هذه المقولات(الكينونية والفكرية) هي لَحْم الصعود الاجتماعي البرجوازي، لَحْم التاريخ الاوروبي (الاقطــاعي –) البرجوازي . وليس فقط « الطبقات » classes .

شرقنا : العشيرة والقبيلة والعـــائلة ، الطائفة الدينية ، الطائفة – الطبقة caste .

(٢٤) يقول فويرباخ : « بهذه المناسبة ينكشف من جديد ان الإله يتألف إن صح القول من عنصرين ، أحدهما ملك لخيال الانسان والثــاني للطبيعة . « صلِّ ! » يقول الطرف الأول ، الإلهُ المتميز عن الطبيعة ؛ « اشتغل ! » يقول الطرف الآخر ، الإله الذي لا يتميز عن الطبيعـــة ولا يعبّر إلا عن جوهر الطبيعة . »

(٢٥) في البيولوجيا ، الـ genre (جنس ، نوع عام) يشمل عدداً من الـ espèces (نوع ، نوع خاص) . – وهناك تصنيفات أوسع من « جنس » وأضيق من « نوع » . – مثلا : « الانسان العاقل » (وهو المصلح العلْمي البيولوجي لنوعنا الحالي) نوع واحد من جنس « البشريات » ، الى جانب أنواع سابقة وأدنى .

والبيولوجيا مثال وقاعدة للمنطق ، لمنطق الحدود والقضايا (الأحكام) والمحاكمة (الاستدلال) .

يمكن ان نتبيّن تمييزين ، أحدهما ثلاثي والآخر ثنائي :

١) الثلاثي: كلي Universel (أو عام) ، خصوصي (خاص) ، مفرد . مثلاً : حيوان ، كلب ، ميدور . العلاقة ثلاثية . نستطيع ان نقول مثلاً : الكلب حيوان ، ميدور كلب ، **إذن** ميدور حيوان . ويتذكر القارىء الاستعمال الهيغلي البالغ الجدوى للقياس syllogisme وحماس لينين . والقياس الهيغلي الجدي يتعلّق بالعمل الانساني وبالمعرفة ؛ ليس قياساً عقيماً ، بل هو جدل هيغل وبذرة مادية تاريخية .

٢) **الثنائي** : عام – خاص .

مثلاً : ميدور (خاص) **هو** كلب (عام) .

في التمييز السابق ، كان ميدور « المفرد » ، وهو هنا « الخاص » ، وكان كلب « الخاص » ، وهو هنا « العام » .

بطبيعة الحال ، ما هو خاص أو خصوصي في العلاقة الثلاثية (عام – خاص – مفرد) يصبح هو العام اذا كانت العلاقة ثنائية بينه وبين كائن مفرد (أو بينه وبين حدّ خاص أضيق) . والأمر ينهار اذا خرجنا عن فكرة **العلاقة** .

في مقالة لينين «**حول الديالكتيك**» نجد العلاقة الثنائية وحدها (جان هو إنسان ، ميدور هو كلب ، ... الخاص **هو** عام) . لينين **نزل** الى المستوى الأبسط والأدنى والأبدأ ، معتبراً ان هذه العلاقة ، هذه القضية الأشهر والأسهل ، هي بذرة الديالكتيك (وحدة أو تماثل الضدين) ، وأنها (في تعليقه على «**ميتافيزياء أرسطو**») الجذر المعرفي للمثالية ، للقلب، للتصويف . ومن البديهي انه يرتكز على **هيغل** و **فويرباخ** .

(٢٦) كلمة « كينونة » Etre في الفلسفة المثالية ، في التأمل النظراني ، في الفلسفة الجامعية البرجوازية ، هي (دوماً) ملتبسة ...

بيد أن إحلال « طبيعة » محل « كينونة » ليس علاجاً ناجعاً . المادية الجدلية (انجلز ، لينين) تقول كينونة ، طبيعة ، مادة مقابل فكر، روح ، وعي . « العلاج » هو **العلاقة ، الثنائية ، المقولات ، الجدل** . وقد يعتقد البعض ان **كلمة** « مادة » تدفع الالتباس ، تقيم المادية ، تمنع اللعب . لا أعتقد ذلك .

الـ « كينونة » محوّلة ميتافيزياً عند بارمنيد ، ضد التغيّر والتعدّد الخ . وهي لا مبالية (مادة أو روح) عند شيلنغ ، هيغل ، الخ ، اذن هي مثالية . ومع ذلك جعلتها المادية الماركسية مقولة المعطى الأول مع الطبيعة والمادة الخ .

« أضع بشكل صريح الطبيعة محل الكينونة ، والانسان محل الفكر » ، أي العياني لا المجرد ؟؟ أليس الطبيعة ، الانسان ، تجريداً ؟ مفهوماً ؟ مقولة ؟

هذا الكلام عند فويرباخ يصبّ عند ... السيكولوجيا الدرامية ، ينتهي الى هذه النهاية : علم النفس الدرامي .

(٢٧) يقول فويرباخ في كتابه « **مبادىء فلسفة المستقبل**» : « إن الفلسفة الجديدة تجعل من **الانسان ، بما فيه الطبيعة** ، بوصفها أساس الانسان ، **الموضوع الوحيد، الكلي والأعلى** للفلسفة – إنها تجعل اذن **الانتروبولوجيا، بما فيها الفيزيولوجيا** ، العلم **الكلي** » .

– إن « إنسان » فويرباخ نوع وحب ، كائن génériqne يدرك نوعه والأنواع ... همّه الانسان ، طبيعته ، جوهره الخ . ولكنه لم يدرك هذه « الطبيعة » و « الجوهر » . الذي أدركها هو ماركس : الانسان جملة العلاقات الاجتماعية وليس تجريد الفرد المعزول ، البشر بدأوا يتميزون عن الحيوان مُذْ بدأوا **ينتجون** حياتهم المادية ، مفهوم الشغل ، انقسامه الى

شغل مادي وذهني ، مسألة الوعي وموقعه ، المهمة التاريخية الراهنة ، صراع الطبقات (١٨٤٤ – ١٨٤٦) ، « الانسان حيوان صانع أدوات » الخ .

« أصول » هـــذه المعرفة عند علماء الاقتصاد ، في جدل هيغل ، الخ ، وهي ترقى الى ماضٍ بعيد . هذه المعرفة هي المادية التاريخية التي أنشأهـا ماركس على قاعدة المادية الجدلية ، مكمّلاً بذلك المادية والجدل .



٣

ل. فويرباخ
عرض وبسط ونقد فلسفة لايبنتس



في هذا العرض اللامع عن لايبنتس Leibniz ، يجب تسجيل بعض المقاطع المرموقة بشكل خاص (وهذا ليس سهلاً ، لأن كل شيء — أقصد الجزء الأول (الفصول ١ — ١٣) جدير بالملاحظة) ؛ ثم تأتي **إضافات عام ١٨٤٧** .

فويرباخ كتب كتابه	الفصلان ٢٠ ، ٢١ ،
عن لايبنتس عام	وبعض المقاطع
١٨٣٦ في وقت كان	مكتوبة في ١٨٤٧
لا يزال فيه مثالياً	

ص ٢٧ — السمة التي تميّز لايبنتس عن سبينوزا : عند لايبنتس يضاف الى مفهوم الماهية substance **مفهوم القوة** force « بل ، وهذا أكثر ، مفهوم القوة الفاعلة » ... مبدأ الفاعلية التلقائية (٢٩) .

إذن ، من خلال اللاهوت ، كان لايبنتس يقترب من مبدأ رابطة لا يمكن أن تُذوَّب (وكلية ، مطلقة) بين المادة والحركة . هكذا يجب فهم كلام فويرباخ ، كما يبدو لي .

ص ٣٢ : « جوهر سبينوزا الوحدة ، جوهر لايبنتس التمييز ، الفرق » .

ص ٣٤ : فلسفة سبينوزا **تلسكوب** ، فلسفة لايبنتس **ميكروسكوب*** .

* تلسكوب : منظار فلكي ، ميكروسكوب : مجهر . نص فويرباخ يقول: « إن فلسفة سبينوزا هي **تلسكوب** يضع في متناول العين الموضوعات التي لا يراها الانسان بسبب بعدها، أما فلسفة لايبنتس فهي **ميكروسكوب** يجعل مرئيّةً الموضوعات التي لا تدرَك حسياً بسبب صغرها ودقتها » .

« عالَـم سبينوزا هو زجاج الألوهية الذي لا يحلـّل الضوء، الوسطُ الذي من خلاله لا ندرك سوى نور الماهية الواحدة السماوي بــلا ألوان ؛ عالَـم لايبنتس بلـّورةٌ متعددة الصفحات ، قطعةٌ من المـاس ، تُحوِّل ، بفضل طبيعتها الخـاصة ، نورَ الماهية البسيط الى ثروة من الألوان متعددةٍ تعدداً لا نهاية له وفي الوقت نفسه تُظـْلِمه . » (هكذا ! حرفياً !)

ص ٤٠ – « بالتالي ، إن الماهية الجسْمية عند لايبنتس لم تعد ، كما كانت عند ديكارت ، كتلةً محض ممتدة ، جامدة [ساكنة ، عاطلة] ، تنـال تحريكها من الخارج ، بل لها في ذاتها ، **من حيث هي ماهية** ، قوةٌ فاعلة ، مبدأُ فاعليةٍ لا يهدأ أبداً » .

لهــذا السبب كان ماركس يقدّر لايبنتس رغم جوانبه « اللاسالية » * واتجاهاته التوفيقية في السياسة والدين .

الموناد Monade ** هي مبدأ فلسفة لايبنتس . الفردية ، الحركة ، النفْس (من طراز خاص) . ليست ذراتٌ عاطلة ، بل مونادات حية ، متحركة ، تعكس في ذواتها الكون بأكمله ، ولهـا قدرة (غامضة) على التمثيل (نفوس من طراز خـاص) ؛ تلك هي « العناصر الأخيرة » (ص ٤٥) .

كل موناد مختلفة عن المونادات الأخرى .

« ... إنه أمر مناقض تماماً لجمال ونظام وعقل الطبيعة أن يكون مبدأ الحياة أو الأفعال الداخلية الخاصة [الذاتية] مرتبطاً فقط بجزء صغير جداً أو جزء خاص من المادة . » (**لايبنتس***** ، ص ٤٥) . NB .

---

* نسبة الى لاسال ، الذي كان توفيقياً في السياسة .

** جوهر فرد ، ذرة مفردة شبه روحية ؛ مبدأ فلسفة لايبنتس التي هي «**مونادولوجيا**» (علم أو مذهب المونادات) ، وهذا عنوان أهم مؤلفاته .

*** أي : الكلام للايبنتس نفسه (وليس لفويرباخ) منقولاً عن كتاب فويرباخ .

« لذا فإن كل الطبيعة مليئة بالنفوس ، كما كان يعترف الفلاسفة الأقدمون بحق ، أو بكائنات شبيهة بالنفوس . إذ بواسطة المجهر نتعرف على انــه يوجد ما لا حصر له من الكائنات الحية التي لا تُرى بالعين المجرّدة ويوجـــد من النفوس أكثر مما يوجد من حبات الرمل والذرات » (**لايبنتس**، ص ٤٥) .

انظر **الالكترونات !**

خصائص الموناد : « الادراك ، إعـــادة الانتاج في التصوّر [النسخ في المخيّلة] » .

« الادراك [الحسّي] ليس سوى تمثيل (« إعادة انتـــاج في التصوّر وصورة ») العقدة أو الخـــارج ، أي التعدّد في الوحدة » ... أو ... « الحالة الانتقالية ، التي ، في الوحدة أو في ماهية بسيطة ، تحوي وتنسخ التعدد » (ص ٤٩) — إدراك مختلط ص ٥٠ (غامض ص ٥٢) عند الموناد — (عند الانسان أيضـــاً يوجد كثير من المشاعر اللاواعية ، المختلطة ، الخ) .

كل موناد هي « عالَم لذاته ، هي وحدة تكفي ذاتهـا » (**لايبنتس** ، ص ٥٥) .

« مزج موحّد من ادراكات غامضة — الحواس ليست شيئاً آخر ، المادة ليست شيئاً آخر » (**لايبنتس** ، ص ٥٨) ... « المـادة هي اذن رابطة المونادات » (نفس الصفحة) .

تأويلي الحر :

المونادات = نفوس من طراز خاص . لايبنتس = مثـالي .
المادة هي شيء مـا مثل شكل لوجود النفس أو مثل تجمّد هو بالنسبة لها رابطة أرضية ، جسدية .

« الواقعيـــة المطلقة ليست موجودة إلا في المونادات وادراكاتها » (**لايبنتس** ، ص ٦٠) . المادة ليست سوى **ظاهرة** .

« الروح وحدها هي وضوح (ص ٦٢) ... أما المادة فهي غياب وضوح وغياب حرية » (٦٤) .

المكان هو « في ذاته شيء مـــا فكري [مثالي] » (**لايبنتس** ، ص ٧٠ – ٧١) .

« كذلك، بعكس رأي نيوتن وأتباعه، لا يوجد فراغ في الطبيعة المادية . إن المضخة العاملة بالفراغ لا تُبرهن أبداً على وجود الفراغ لأن الزجاج له مسام تستطيع من خلالهـــا أن تتسرّب شتى أنواع المواد الدقيقة » (**لايبنتس** ، ٧٦ – ٧٧) .

« المادة هي ظاهرةٌ un phénomène » (**لايبنتس** ، ٧٨) .

« كينونة المونياد لذاتها هي نفسُها ؛ كينونتها لآخرَ هي المـــادة » (**فويرباخ** * ، ٧٨) .

النفس الانسانية هي موناد مركزية ، عالية ، هي entéléchie [حاملة مبدأ تحسّنها وكالها] الخ ، الخ .

« لذا فإن كل جسْم مُعْتَلٌ [متأثّر] بكل مـا يحصل في الكون . » (**لايبنتس** ، ٨٣) .

« المونياد تمثل كل الكون » (**لايبنتس** ، ٨٣) .

« المونياد ، رغم كونها غير قابلة للتجزئة ، لها في ذاتهـا اتجاه معقّد ، أي تعدديةٌ من الادراكات ، التي تتجه بصورة إفرادية نحو تغيّراتها الخاصة ، والتي هي ، بسبب ترابطها الجوهري مع كل الموضوعات الأخرى ، موجودة فيها بالوقت نفسه » ... « الفردية تحوي في ذاتهـا اللانهاية في شكل بذرة إن صح القول » (**لايبنتس** ، ٨٤) . **هـ . ل** : NB لايبنتس عاش من ١٦٤٦ الى ١٧١٦ .

(*) أي : الجملة لفويرباخ .

ثمة هنا ديالكتيك من طراز خاص بل ديالكتيك بالغ العمق **رغم** المثالية والظلامية الاكليركية .

« كل شيء في الطبيعـــة تشابهي [analogique ، قياسي ، تماثلي] » (**لايبنتس** ، ص ٨٦) .

« **بوجه عام ، في الطبيعة مـا من شيء انقطاعي بشكل مطلق** ؛ [لينين أبرز هذا السطر وأحال بواسطة سهم على ملاحظته الآنفة] كل التناقضات ، كل حدود المكان والزمان والنوع عينه ، تختفي أمام التواصل المطلق ، أمام ترابط الكون ، ترابطه اللامحدود » (**فويرباخ** ، ص ٨٧) . (م ١)

« رغم أن الموناد ، بحكم طبيعتها الخاصة ، المؤلفة فقط من أعصاب وليس من لحم ودم ، هي معتَلّة ومصابة بكل مـا يجري في الكون » ... رغم ذلك « ليست أحـــد أشخاص العمل ، بل تبقى مشاهدة لدراما الكون . وهنا بالضبط يكمن العيب الجوهري للمونادات* » (**فويرباخ** ، ٩٠)

توافق النفس والجسد — harmonie préétablie تنسيق مسبَق** **أقيم من قبل الله .**

« **الجانب الضعيف عند لايبنتس** » (**فويرباخ** ، ٩٥) *** .

« النفْس — هي نوع من أوتومات [يسير بذاتـــه] روحي » (**لايبنتس** ، ٩٨) .

لايبنتس نفسه قـــال ذات مرة انه من السهل الانتقال من مذهب

---

* « للمونادولوجيا » حسب نص فويرباخ (تصحيح من هيئة التحرير الفرنسية) .

** وردت بالفرنسية في نص لينين .

*** يقول فويرباخ : « إن مذهب التنسيق المسبق، رغم كونه ابنه المفضَّل، هو الجانب الضعيف عند لايبنتس ... إن التنسيق السابق، مأخوذاً بمعنى خارجي محض ازاء المونادات، يناقض تماماً روح لايبنتس » .

الأسباب – المناسَبات الى فلسفته (**فويرباخ** ، ص ١٠٠) . ولكن عنـــد لايبنتس هذا ُمستنتَج من « طبيعة النفْس » ... (ص ١٠١) (م ٢)

في كتاب الـ **ثيوديقيا** Théodicée ، الفقرة ١٧ ، لايبنتس ، جوهرياً ، يردّد الدليل الاونتولوجي على وجود الله . (م ٣)

لايبنتس انتقد تجربية لوك Loche ، في كتابه « **محاولات جديدة عن الفهم الانساني**» (م ٤) – بقوله انه لا شيء في الفهم الخ **فيما عدا الفهم نفسه**(!) ص ١٥٢ . (فويرباخ ، في الطبعة الأولى ، يقوم هو أيضاً بنقد مثالي للوك). إن مبدأ « **الحقائق الضرورية** » موجود « **فينـا** » (**لايبنتس** ، ١٤٨) .

كذلك كنط أيضاً .

توجد فينا ِفكَـرَ الماهية ، التغيّر ، الخ . (**لايبنتس** ، ١٥٠) .

« أنْ يكون المرءُ محدَّداً [معيَّناً،مقرَّراً] الى الأفضل من ِقبَل العقل– تلك هي أعلى درجة للحرية » (١٥٤ ، **لايبنتس**) .

« فلسفة لايبنتس هي **مثالية** » (**فويرباخ** ، ١٦٠) الخ الخ .

... « إن الإلهية التعدّدية أو التعدّدية الإلهية الصافية والحية لمونادولوجيا لايبنتس صارت الإلهية الواحدية الصارمة ، وبالتالي الأكثر نزوحاً الى الروح، الأكثر توتـّراً ، لِـ « المثالية المتعالية » . » (**فويرباخ** ، ١٨٨) . **هـ . ل :** انتقال الى كنط .

(ص ١٨٨ — ٢٢٠ : إضافة مذيلة بتاريخ **١٨٤٧**) .

ص ١٨٨ : « فلسفة مثالية ، **قبْلية** a priori » ...

« ولكن من البديهي أنّ ما هو **بعْديّ** a posteriori بالنسبة للإنسان، هو **قبْليّ** بالنسبة للفيلسوف ؛ إذ ما ان يكون الانسان قـــد جمع تجارب وركـَّبها جميعاً في مفاهيم عــامة ، يكون بالطبـع قادراً على إصدار « أحكام

تركيبية قبْليّة » (**هـ . ل** : فويرباخ يسخر من كنط) * . لذا فإن مـا كان لعصر سابق **قضيةَ تجربة** يصبح فيما بعـد **قضيةَ عقل** ... هكذا في ماض قريب ، لم تكن الكهرباء والمغناطيس سوى خصائص تجريبية – حسية ، أي هُنـا ، عرَضية ، ملاحَظة فقط على أجسام مفرَدة ، ولكن الآن بنتيجة ملاحظات واسعة بات يُعترَف بهـا أو يُتعرَّف عليها كخصائص لكل الأجسام ، كخصائص جوهرية للجسم بصورة عـامة ... هكذا ، فقط من وجهة نظر تاريخ البشرية يمكن إعطاء جواب وضعي – إيجـابي عن مسألة أصل الفِكـَر » ... (١٩١ – ١٩٢) .

النفس ليست شمعاً ، ليست **صحيفةً بيضاء** ... « لإنتاج الادراك ، يجب أن ينضاف إلى الموضوع شيءٌ ما مختلف عنه وإنه لمن الجنون ان اريد ان اشتق من الموضوع هـذا العنصر المختلف الذي هو قاعدة الجوهر الخاص بالادراك . ولكن ما هو اذن هذا العنصر ؟ إنه شكل الكلية ؛ إذْ ، كما لاحظ لايبنتس ، حتى الفكرةُ المفردة أو الادراك الفردي – على الأقل بالمقارنة مع الموضوع المفرد الواقعي – هما في الأصل عامّان ، أي هنا ، غيرُ معرَّفين ، مدمَّران ، يتركان جانباً الفروقَ المميِّزة . الحساسيةُ كُتَلِيَّةٌ ، غيرُ نقدية ، غنيّة أكثر ممـا يجب ؛ بينما الفكرةُ ، الادراكُ ، ينحصر في العام وفي الضروري . » (١٩٢) .

« بالتـالي ، إن الفكرة الأساسية في « **المحاولات الجديدة عن الفهم الانساني** » كما في « **نقد العقل الخالص** » (**هـ . ل** : لايبنتس وكنط) هي ان **الكلية** و **الضرورة** التي لا يمكن أن تنفصل عنهـا (**هـ . ل** : الضرورة

---

* قبْلي أي قبل التجربة ، قبل الاحساس . بعْدي أي بعد التجربة الحسية . العقلانية (ديكارت ، خلفاؤه) تؤيد « الفِكـَر الفطرية » . التجربية (لوك ، الخ) تنفي ذلك ، تعلن أن النفْس قبل التجربة هي « صحيفة بيضاء » . كنط و « الأحكام التركيبية القبلية » محاولة تركيب على أساس عقلاني مثالي . (م ٥)

لا تنفصل عن الكلي) تعبّران عن الطبيعة الخاصة بالفهم أو بالكائن المتمتع بالادراك وانها بالتالي لا يمكن أن تأتيا من الحواس ، من التجربة ، اذن هنا من الخارج » ... (١٩٣) .

وهذه الفكرة موجودة عند الديكارتيين، منذ الديكارتيين – فويرباخ ينقل نصاً لِ **كلاوبرغ** Clauberg سنة **١٦٥٢** .

هـ . ل : الكنطية = بضاعة رديئة قديمة .

« لا ريب ، هذه البديهية (بديهية ان الكل أكبر من الجزء) ليست مَدينةً ببداهتها للاستقراء بل للفهم ، إذْ ، بشكل عام ، ليس للفهم من هدف آخر ووظيفة أخرى سوى تعميم معطيات الحواس لتجنيبنا جهدَ التكرار ، سوى التسبيق [الاستباق] ، الاستبدال ، توفير التجربة والادراك الحسيَّين . ولكن هل الفهم يفعل ذلك بأمرة ذاته، دون أن يكون سبب ذلك في الحواس ؟ الحالة المفردة التي تكشفها الحواس لي هل هي حالة مفردة في التجريد ، بشكل مجرّد ؟ أليست حالةً محدّدة كيفاً ؟ ولكن أليس في هذا الكيف [qualité ، صفة ، « نوعية »] تَماثُل للحالات المفردة يمكن ادراكهُ حتى بالحواس ؟ ... ألستُ أرى سوى أوراق وليس أيضاً أشجاراً ؟... أليس ثمة **إحساس – شعور** بالماثِل ، بالمشابه والمختلف ؟ أليس هناك بالنسبة لحواسّي أي فرق بين الأسود والأبيض، بين النهار والليل، بين الخشب والحديد ؟... أليست الحواس التأكيد المطلق لما هو كائن ؟ القانون الأسمى للفكر ، **قانون** الهوية ، أليس هو **قانون** الحساسية أيضاً ؛ وأكثر من ذلك، هذا القانون للفكر لا يستند الى حقيقة الحدس الحسّي ؟»... (١٩٣ – ١٩٤) .

لايبنتس في « **المحاولات الجديدة** » : « العمومية قوامها في تشابه الأشياء المفردة فيما بينها وهذا التماثل حقيقة واقعة » (الكتاب ٣ ، الفصل ٣ ، الفقرة ١١) . « ولكن أليس هذا التماثل حقيقة للحواس ؟ الكائنات التي

يَصفُها الفهم في صنف **واحد** ، في نوع – عـام **واحد** ، ألا تؤثـر أيضاً في الحواس بكيفية واحدة مماثلة ؟... بالنسبة لحسّي الجنسي sexuel – وهو من الناحية النظرية حس له أعلى أهمية ، وإن كان عادةً يُهمَل في نظرية أعضاء الحواس – ألا يوجد أي فرق بين أُنثى الحيوان والمرأة ؟ ما هو اذن الفرق بين قدرة الفهم وقدرة الحواس أو الاحساس ؟ الحواس تعطي **الشيء** ، الفهم يعطي **الاسْم** [**هـ . ل** : جيّد ! NB] . لا شيء في الفهم الا ّ وهو في الحواس ؛ ولكن ما هو في الحواس بالواقع ليس في الفهم الا بالاسم . الفهم هو الكائن الأسمى ، الوصيّ على العـــالم ؛ ولكنه كذلك بالاسم فقط وليس بالواقع . [**هـ . ل** : جيّد] . ولكن مـا هو الاسم ؟ انه علامة مميزة ، إشارة بارزة أجعلُها طابعَ وممثلَ الموضوع ، لكي أجعله حاضراً في الروح كوحدة جمعية ، ماثلاً له في جملته » (١٩٥) .

... « الحواس هي أيضاً تقول لي ، كما يقول لي العقل ، ان الكل أكبر من الجزء . لا تقوله لي بكلمات بل بأمثلة من نوع: الإصبع أصغر من اليد» ... (١٩٦ – ١٩٧) .

... « اليقين بأن الكل أكبر من الجزء ليس اذن ولا ريب تابعاً للحواس. ولكنه تابع لمـــاذا ؟ لكلمة : الكل . إن قضيةَ أن الكل أكبر من الجزء لا تقول على الاطلاق أمراً آخر سوى مـا تقوله بذاتهـــا كلمة : الكل ... » (١٩٧) .

... « بالعكس ، لايبنتس بوصفه مثالياً أو روحانياً يجعل من الوسيـلة الهدف ومن نفي الحساسية جوهر الروح » ... (١٩٨) .

... « مـا يعي ذاته هو موجود وكائن وهو يُدعى النفس . إذن نحن موقنون بوجود نفسنا قبل وجود جسدنا . لا شك الوعي هو الأول ؛ ولكنه الأول فقط لي وليس الأول في ذاته . من وجهة نظر وعيي ، أنا **كائن لأنّ** لي **وعياً** ؛ ولكن من وجهة نظر جسدي ، لي **وعي لأنني كائن** . أي منهما على

حق ؟ الجسد أي الطبيعة أم الوعي أي أنا ؟ أنا بالطبع ، إذ كيف يمكن أن أعتبر ذاتي على باطل ؟ ولكن بالواقع كيف كيف يمكن أن أفصل وعيي عن جسدي وأن أُفكِّره لنفسه ؟... (٢٠١)

« العالم موضوع للحواس وموضوع للفكر » (٢٠٤) .

« في موضوعٍ حسّي ، يميّز الانسان الكينونة كما هي واقعياً كموضوع للحواس عن الكينونة المفكَّرة لهذا الموضوع المشتقة من الحواس بالتجريد . يدعو الأولى **الوجود** أو أيضاً **الفرد** والثانية **الجوهر** أو **النوع** . يعرّف الجوهر كضروري وأزلي – إذْ حتى إذا اختفى كائن حسّي من عالم الحواسّ فانه مع ذلك يبقى ككائن مفكَّر أو ممثَّل – ويعرّف الوجود كعرضي وعابر ... » (٢٠٥) .

... « لايبنتس **نصف** مسيحي ، إنه إلهي المذهب أو مسيحي و طبيعي المذهب . إنه يَحدّ طيبة وقدرة الله بالحكمة ، الفهم . ولكن هذا الفهم ليس سوى غرفة تاريخ طبيعي ، ليس سوى تمثيل ترابط الطبيعة ، مجموع الكون . انه يحدّ إذن نزعته الإلهية **بالنزعة الطبيعية** ؛ يؤكد الإلهية ويدافع عنها بما يُلغيها » ... (٢١٥)

ص ٢٧٤ (من إضافة عام **١٨٤٧**)

كم تحدثوا عن خداع الحواس وكم قليلاً تحدثوا عن خداع اللغة ، مع ان الفكر لا يمكن أن ينفصل عن اللغة ! والحال ، إن خداع الحواس فظ غليظ بينما خداع اللغة ناعم مرهف . ما أطول ما ساقَتني كليةُ العقل ، كليةُ أنا فيخته وهيغل ، من طرفِ أنفي ، إلى أن اعترفتُ أخيراً ، بفضل نجدة حواسي الخمس ، اعترفتُ لخلاص نفسي بأن كل هذه الصعوبات والأسرار للّوجوس في دلالة العقل تجد حلّها في دلالة الكلمة ! ولذا فإن قول هايم Haym « إن نقد العقل يجب أن يصبح نقدَ اللغة » يصيبني في القلب

على صعيد النظرية . (م ٦) – ولكن ، فيما يتصل بالتناقض الثنائي بين أنا، ككائن مُحِسّ وشخصيّ ، وأنا ، ككائن مفكّر ، فإنه يتحوّل ، بمعنى الملاحظة الحاضرة والمناقشة التي أنقلها (وهي لفويرباخ نفسه) ، ويتقلّص إلى هذا الطباق الغليظ : ككائن مُحِسٍّ أنا فرد ، ككائن مفكّر أنا كلّيّ . ولكني لست أقل كلية في الاحساس مما أنا فرد في الفكر . والتوافق في الفكر لا يرتكز إلا على التوافق في الاحساس . » (٢٧٤)

« ... كل اجتماعيةٍ ترتكز على فرضية تماثل الاحساس بين البشر » (٢٧٤)

سبينوزا وهربارت (عام ١٨٣٦) ص ٤٠٠ وبعدها . **دفاع** عن سبينوزا ضد الحملات السافلة لـ « الاخلاقي » هربارت * .. الموضوعيّة الحادّة لسبينوزا ، الخ NB

الموقف من هيغل (عام ١٨٤٠ وبعده) ص ٤١٧ وبعدها .

فويرباخ يشدّد ، بشكل غير واضح تماماً وبطريقة مفككّة ،
على انه كان تلميذاً لهيغل .

بين الملاحظات :

« ما قيمة ديالكتيك هو في تناقض مع الولادة والتطور الطبيعيين ؟ ما هي ضرورته ؟ » ... (٤٣١)

السيد فون شيلنغ Schelling (١٨٤٣) . رسالة إلى كارل ماركس

---

* هربارت (ق ١٩) تلميذ كنط ، اهتم بمسائل التربية . شهير في حقل التربية وفي دور المعلمين (ضابط الأشكال) ، كفيلسوف ليس ذا شأن ...

سبينوزا تعرّض لأكبر حملة من قبل الكنيس والكنيسة والمفكرين .

(ص ٤٣٤ وبعدها) . حسب المسودّة . نقد ساحق لشيلنغ * .

نهاية المجلد ٤ .

●

ملاحظات :

(١) **« مراجعة » ، موقع لايبنتس :**

آ – إحيائية المجتمع البدائي تملأ الأشيـــاء بالأرواح المحرّكة .... الدين (فكرة الخلق ...) – في أحد وجوهه – انقلاب على هـذا الموقف ... والمعرفة الوضعية تسلك (بالضرورة) الطريق « المنطقي العقلي » الذي هو الميتافيزي والميكانيكي . العصر الوسيط (في تاريخ اوروبا) انتكاس (ديني وسحري) . ديكارت ، بيكن ، لوك ، نيوتن الخ ثورة كبيرة . علوم «العصر الحديث » هي الفيزياء الميكانيكية الهندسية .

ب – **ديكارت** يفصل ماهيتين ... المادة محمولها (صفتها الأساسية الأولى الملازمة) أو جوهرها : الامتداد – المكان . الحركة صفـة ثانية أتت من الخارج . المذهب الإلهي والمذهب الميكانيكي يتوافقـــان يتكاملان . مذهب ديكارت هو في أحد أهم وجوهه تنظير لوضع العلوم في عصره (ميكانيك ، هندسة) وهو يساعد على تقدمها التالي (ق ١٧ – ١٨) – في كل هـــذه الحقبة « يسود التصوّر الميتافيزي للكون » – ولكن هذه المادية الميكانيكية

---

* شيلنغ : فيلسوف مثالي ، مزامن لهيغل (ق ١٨ – ١٩) . أحد أقطاب الفلسفة الكلاسيكية و النظرانية . مـال أكثر فأكثر في الاتجاه الرجعي : صوفية ، « حدْس » ، ايمانية الخ .

رسالة ماركس الى فويرباخ وجواب فويرباخ (١٨٤٣) منشوران في الأعمـال الكاملة لماركس – انجلس (Mega) .

الفيزيائية (« فيزياء » ديكارت ومادية خلفائه وصولاً الى أواخر القرن الثامن عشر) طردت « الحياة » ، « الفعل » ، « القوة » ، الحركة التلقائية الداخلية الذاتية . عملية التطهير الديكارتية الجبارة (تطهير الكون المادي من الأرواح والعفاريت وتسليمه للعلم) حاصلة على حساب وجـــه ثمين **وعريق** في المعرفة الانسانية ، في معرفـــة وشطح الانسان . **سبينوزا** لم يبدّل هذه النقطة .

ج – **لايبنتس** يسترجع الحركة (الحركة التلقائية ، الملازمة للمادة) في شكل « القوة » force ، يسترجع الوجه الجدلي – الذي – نُبذ ، يسترجعه في مذهب المونادات جامع الجدل والصوفية .

ولا بأس من إشارة الى أن تجاوز لايبنتس لديكارت وانتقـــاله من « الماهية – الامتداد » الى « الماهية القوة » ينتسب عند صاحبه (في جملة أمور) الى تأمله في العقيدة المسيحية اللوثرية (عـن « الحضور الحقيقي ») والكاثوليكية (« تحوّل وتغيّر الماهية ») المتصلة بسر التجسّد والمناوَلة الخ. (وهيغل سينسب نفسه في جملة أمور الى لوثر ونشيده: «الله نفسه مات»الخ).

لم نرَ من الضروري أن نعلـّق على كل أطروحة وردت في النص ... من الناحية المعرفية – العلمية ، الوجه الصوفي عند لايبنتس محكوم بحـالة العلوم وإحساس أو وعي لايبنتس بقصور هذه الحـــالة . ومن وظيفة الفلسفة ان « تستبق » العلوم . هذا مـا يقوله **انجلس** في « **جدل** الطبيعة » ، مشيراً الى نقد هيغل الى فيزياء نيوتن (أي فيزياء ثلاثة قرون)، مشيراً بحماس الى لايبنتس وحساب التفاضل والتكامل ، الى كنط كعالم فلكي وجـّه أول ضربة للتصور الميتافيزي للكون ...

يستطيع القارىء أن يعود مرة ثانية الى النص وأن يتبين وجه الصواب (الديالكتيك) ووجه الخطأ (التصويف ، المثالية ، الروحانية ، الاختلاط) في أطروحات وخط لايبنتس . لا وجود ولا قيمـــة لِ « مادية جدلية »

(وتاريخية وسياسية) تستغني عن المجهر (أو عن المنظار الفلكي) أو تعتبر المجهر غيرَ أساسي وأقلّ شأناً من المنظار الفلكي (و **تلغيه عملياً**) ، لا تجمع المجهر والمنظار ، تستغني عن تحليل النهايات الصغرى (وقد اخترعه كل من نيوتن ولايبنتس في سنة واحدة وبصورة مستقلة *) ، أو ترمي أطروحة من نوع « كل جسم معتلّ بكل ما يحصل في الكون » أو « المونادا تمثّل كل الكون » ...

(٢) . نظرية الأسباب – المناسَبات ، ونظرية التنسيق المسبق .

آ – **ديكارت** فصل الكينونة الكائنة الى ماهيتين : المادة – الامتداد والروح – الفكر ، والانسان مركّب منهما ؛ إنه جسد ونفْس ... ومذهب ديكارت قسمان : « فيزياء » مادية و « ميتافيزياء » (ما وراء الطبيعة) .

نظّر أو فلسف الدين ، المسيحية ، المثالية الشعبية المصفّاة : الله روح وهو الخالق للطبيعة والانسان ، الأشياء المادية مادية ، الانسان نفس روحية خالدة وجسد مادي فان . النفس حاملةُ الفكر والوعي والشعور والنفسي الخ** . ولكن ماذا عن الحيوان ، عن **النفسي الحيواني** ؟ هل تحمله نفْس (ماهوية خالدة) ؟ نجد عند ديكارت حديثاً غامضاً عن « أرواح

---

* في هذا العلم الرياضي (حساب التفاضل والتكامل) يتجلى جدل الكبير والصغير ، جدل اللانهاية، في الطبيعة، في الكينونة المادية، في تصريح **لايبنتس وانجلز** . لينين متحمس لهذا العلم (وراء **منطق هيغل**) – كتاب « جدل الطبيعة » صدر بعد وفاة لينين .

** ديكارت وحّد « النفسي » . هذا التوحيد (ضد اختلاطات سابقة) يهيىء مقولة « المعطى الثاني » المادية الماركسية (الروح ، الفكر ، الوعي ، كل « إمارة » السيكولوجي بدءاً من الاحساس ، بما فيها العاطفة الخ) . ديكارت والمادية الفلسفية الماركسية كلاهما مع **العلاقة** ، مع الهوية في العلاقة . ما هو بالنسبة لديكارت ماهيتان هو عندنا **مقولتان** فلسفيتان أوليتان ، اثنتان ، كل منهما متماثلة مع نفسها في العلاقة مع الأخرى . الفروق تأتي بعد هذه الخطوة الأولى . بل المادية الجدلية شدّدت وعزّزت الهوية : الروح = الفكر = السيكولوجي الخ .

حيوانية » espritsanimaux دُنيا ، هو نشاز يتنافر مع خطـّه . هذا **الخط** يحذف السيكولوجي الحيواني ، **يحذف** مقولتنا الثـــانية بالنسبة للحيوان . تلامذته (ق ١٧ — ق ١٨) أعلنوا ان الحيوان آلة ، ميكانيك ، انه لا يحسّ ولا يتألم . « انظروا ! **وكأنه** يتألم ! » . وذهب قولهم هذا مثلاً ! ولا ريب انهم سخروا من سذاجة الجمهور الذي يتصوّر ان الحيوان حين يعذّبونه يتألم فعلاً ، ولا ريب ان الجمهور سخر من علمهم ويقينهم . بيد أن علمَهم هذا قائم في « فيزياء » ديكارت (المـادية) وفي جملة مذهب ديكارت (مادية ميكانيكية + مثالية) في **أساس** هـــذا المذهب (الثنائية ، مثالية الروح الماهوية) .

السيكولوجي الحيواني — وجوده ، معرفتـــه ، ثم معرفته العلْمية — يدحض هذه الثنائية ، يضع حداً للانقطاع بين مستوى الانسان ومستوى الحيوان ، بين الانسان والطبيعة المادية ، يكشف ان « النفسي » قائم عنـد الحيوان ولا يحتاج الى نفس ماهوية ...

بيد ان المشكلة التي واجهت خلفاء ديكارت، الفلاسفة النظرانيين الكبار، الذين واصلوا خطه « العقلاني » ، لم تكن مشكلة النفسي الحيواني، بل كانت مشكلة العلاقة العامة بين الماهيتين وقد تحددت عند الانسان .

كيف نعلـّل التوافق المشهود لظاهرات الجسد والنفس بعد الفصل الحاصل؟ التفكير والغضب والألم والفرح لهـــا مرافقات سطحية وعضوية ، أي مادية مكانية ؛ المرض الجسدي يولـّد الألم النفسي والضجر الروحي، الرصاصة المادية في الجسد الممتد تخرج النفس الروحية وتنقل من الحياة * إلى الموت . بمفردات ديكارت : كيف تفعل النفس (اللامكانية) في المكان ؟

---

* أحد عيوب المادية الميكانيكية الميتافيزية هو افتقارها الى هذا المستوى : الحيـــاة ، العضوية . هـــذا العيب تابع لحالة العلوم (تأخر علم البيولوجيا حتى أوائل القرن التاسع عشر) ...

جواب ديكارت : عبر الغدّة الصنوبرية ، وهي غدة صغيرة جـــداً ... ولكنها – مهما صغرت – ممتدة ، مكانية !

ب – **سبينوزا** (ق ١٧) حل المسألة أو حذفهـــا في تجاوزه لثنائية الماهيتين ، باعلانه ماهية واحدة هي الطبيعة هي الله ، وهي في آن حاملة المحمولين – الامتداد والفكر – ومحمولات وأنمـــاط وصفات اخرى معلومة وغير معلومة (اللامحدودية لحظة سبينوزية هامة) .

ج – **مالبرانش** (ق ١٧) الذي حوّل عقلانية ديكارت في اتجـاه مثالي روحاني صوفي (مع عنصر ما جدلي) وحاول التوفيق بين فيزياء ديكارت .. و ... ميتافيزياء اوغسطين * ، حل المسألة بنظرية **الاسباب – المناسبات** : causes occasionnelles

لا يوجد في الكون سوى سبب فاعل واحد هو ارادة الله . النفس التي ليس لها امتداد لا تستطيع أن تحرّك الجسد . الله هو الذي يُنتج في الجسد هذه الحركة أو تلك ، أما رغبة النفس أو الفكر فلم يكن سوى مناسبة ذلك. وبالمقابل ، فان حركة ما للجسد هى بالنسبة لله ، فرصة إحداثه فكرةً ما في النفس . الله هو السبب الكلي الكوني الوحيد ، والوحيد الفعال . « لا يوجد سوى سبب واحد لأنه لا يوجد سوى إله واحد حق ؛ كل الأسباب الطبيعية ليست أسباباً حقيقية ، بل فقط أسبابٌ مناسبية ، تقرِّر [تحدّد] خالقَ الطبيعة للعمل بهذه الكيفية أو تلك في هذا التصادف أو ذاك » .

كان من رجال الدين (لاهوت ، فلسفة ، فيزياء ، هندسة) دخل في

---

* حسب رأيه ، الفِكَر الفَهْمية هي جوهر الله نفسه « لولا فِكَر الكائنات المخلوقة لما استطاع الله أن يخلق ، الفِكَر هي اذن في الله » . – هذا خط طويل : افلاطون ، افلوطين ، اوغسطين ، المسيحية ... وهو ذو صلة بقضية اللوجوس التي هي قضيـــة معرفة الكون ، قضية الفكر وتصويفه ...

سجال مع بوسويه ومع ارنو Arnauld حول قضية النعمـــة الالهية ... وفي شجار مع الجزويت . هؤلاء اتهموه بالإلحاد .

د – **لايبنتس** (ق ١٧) وضع نظرية **التنسيق المقـــام أصلاً** . وهو « اتفاق أقامه الله بين الماهيات المخلوقة ، اتفاق يعلـّل توافق ادراكاتها بدون تأثير ماهية جسمية عليها وبدون فعل متبادل فيما بينهـا » . الجسد والنفس ساعتان جداريتان منفصلتان ولكن وفـّقهما الله وجعل حركاتهما في توافق دقيق . وقد استعار لايبنتس هذه الصورة عن **غولينكس** Geulinex وهو فيلسوف (هامشي) ، حاول « إكمال » ديكارت بأفكار قريبة من سبينوزا ومن مالبرانش في آن : لا فعل الا واعياً ؛ الله هو السبب الوحيد ، الأجسام تفعل كأدوات لا كأسباب ؛ النفس والجسد ليس بينهما فعل متبادل ، انهما ساعتان جداريتان مستقلتان ....

من الواضح ان هذا القسم (الأشهر مدرسياً) في فلسفة لايبنتس هو القسم الأضعف وهو لا ينسجم كثيراً مع اتجاهها الجدلي والصوفي .

(٣) إن قضيةَ أسبقية الكينونة والفكر – وجذرُهـا المعرفي : قضية الخاص والعام ، قضية الانعكاس ونوعيته – ، المسألةَ الكبرى ، « الأولى ، العليـا » ، مسألة معَسْكري المادية والمثالية ، اتخذت في الفلسفة الاوروبية الكلاسيكية شكلَ مسألة : هل الكون مخلوق أم لا ؟ هذا ما يقوله **انجلس** في « **لودفيغ فويرباخ** » ... الله مسألة مُهيَمِنة من ديكارت إلى ما بعد هيغل (النظرانيون الكبار ، الريبيون ، الماديون الخ) .

ديكارت حصر دور الله (خالق ، محرِّك أوّل) ، مالبرانش وسّعه ، سبينوزا وسَّعه وذوّبه ، لايبنتس من الصعب تلخيص موقفه من القضية بعبارة.

الدليل الاونتولوجي (أو الكينوني) على وجود الله يبدو التقـاءً بين خط بارمنيدي يوناني وخط شرقي مسيحي : « كمال » أو « لا محدودية »

الكائن الكامل اللامحدود تفترض وجوده . — في هذه الحال ، ألا يكون هذا الكائن هو الكينونة — الطبيعة — المادة ؟ Etre واحد أم اثنـــان ؟ هذا نوعاً ما كان موقف سبينوزا ... ديكارت ، مالبرانش ، لايبنتس، سبينوزا، هيغل ، أيدوا البرهان الاونتولوجي وأعطوه اتجاهات مختلفة * .

الـ **ثيوديقيا** هو كتاب لايبنتس المخصص لموضوع الله . عنوانه الكامل : « محاولات في الثيوديقيا عن طيبة الله وحرية الانسان وأصل الشرّ » . فيـه جابه الفيلسوف مسألة تعليل أصل الشر ، ضد الصعوبات وضد حجج الخصم المادي أو الريبي أو سواه : التوفيق بين وجود الشر وقدرة الله الكلية وعدالته ورحمته ... ونظرية لايبنتس **متفائلة** : لا بد ان الله اختار لكي يخلقه أفضل العوالم الممكنة ، العالم الأقل بعداً عن الكمال . « كل شيء على مـــا يرام في أفضل العوالم الممكنة » (١٧١٠) . **فولتير** (ق ١٨) ردّ بسخرية مريرة في رواية فلسفية عنوانها « كانديد ** أو عن التفاؤل » .

كتاب لايبنتس يتصل بـ « البرهان الطبيعي الغائي » على وجود الله . وهو البرهان الأشهر والأقوى شعبياً ، والأضعف فلسفياً ... وهو **نوعاً مـا** — في الفلسفة — رديف وتابع للبرهان الفلسفي الاونتولوجي .

(٤) . « محاولات جديدة عـن الفهم الانساني » عنوان كتاب لايبنتس (١٧٠٠ — ١٧٠٩) وهو « يعارض » عنوان كتاب لوك : « محاولة عن الفهم الانساني » (١٦٩٠) .

إشارة التعجب في السطر التالي تهكـّم من لينين ضد لايبنتس (ثم كنط).

(٥) . الفلسفة الحديثة جابهت مسألة « مصادر المعرفة » .

---

* انظر ملحقنا في كتاب : « فكر هيغل » تأليف غارودي .

** كانديد هو بطل الرواية . ولكن هذه الكلمة تعني: بريء ، ساذج، يُخدَع بسهولة .

« **العقلانية** » أكدت وجود « فِكَـر فطرية » ، أحكام قبْلية ، سابقة للتجربة ، للحسّ . **ديكارت** رائد هـــذا التيار . مالبرانش ، سبينوزا ، لايبنتس ، كنط على هذا الخط « العقلاني » .

« **التجريبية** » نفت وجود « فِكَـر فطرية » ، أعلنت ان التجربة أي الحسّ والحواس هي مصدر المعرفة . رائد هذا التيار (بعـد بيكـُن) هو **جون لوك** (١٦٣٢ — ١٧٠٤) : كل أفكارنا تأتي من التجربة ، النفس قبل التجربة صحيفة بيضاء (ولكنه أضاف « تجربة داخلية » هي « التفكير » . — ولكن أليس التفكير انعكاساً réflexim بحكم الكلمة !؟) . بعده ، جاء سلسلة من الخلفــاء الماديين الانـكليز والفرنسيين . المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر (أي ذروة تيـار المادية التاريخي قبل فويرباخ) جمعت فيزياء ديكارت والتجربية الانـكليزية . ممثلوها : هولباخ ، هلفيسيوس ، لامتري ، **ديدرو** . **كونديلك** شبّه النفْس بتمثال من الشمع تنطبع عليـــه المؤثرات الخارجية ، دُعِي مذهبه « الإحساسية » .

من الواضح أن «الفِكَـر الفطرية» وما شابهها أو تلاها تقيم ماهوية الفكر، أي المثالية .

ولكن ، الى جانب التجربة المادية ، قامت من البداية تجربيةٌ مثـالية ذاتية : **بركلي** (أوائل ق ١٨) ، ثم **هيوم** .

كنط (ق ١٨) سعى الى جمع الاتجاهين ، ولكن من منطلق مثـالي أساسي .

هيغل (= الديالكتيك) تجاوز الاتجاهين . لسوء الحظ ، جمع الديالكتيك والمثالية .

المادية الماركسية أكدت مبدأ أو بديهية التجربية * ، رفضت الفِكَـر

* هذا المبدأ يقيم مباشرة وجود الكينونة المادية الحسية ونظرية الانعكاس المادية .

الفطرية ومـا شابه ... ودحضت بقية المذهب التجربي ، الموقف التجربي ، أيدت الديالكتيك ، الطريقة ، هيغل ، جعلت الديالكتيك مادياً و **الموقف** التجربي لحظةً ووجهاً في طريقة المعرفة العلمية – الفلسفية . **الموقف** التجربي الحسّي الخ لا يقيم علـْماً sciepce ... هذا واضح ومصرَّح به عند ماركس وانجلز ولينين .

تيار التجربية – النقدية (ماخ ، الخ) وراء بركلي وهيوم (وكنط) .

في القرن العشرين ، التجربية عنصر أساسي في المناخ العام المثالي – الذاتي المتنوع الأشكال واللافتات . انجلس (في « جدل الطبيعة ») أكد أن « رفض الفلسفة » و العمل بالمفاهيم من قبل علماء طبيعة يحبّون البقـــاء مع الواقع المحسوس الخ يقودهم الى تحضير الأرواح (خصص مقالاً لهذه القضية) . ولينين في مقاله الفلسفي الأخير (« عن دور المــادية المكافحة ») بيَّن ان مادية بلا ديالكتيك و بلا هيغل و **منطق هي** عتبةُ أسوأ المثاليات .

إن المبدأ التجربي يقيم عندنا (بعكس بركلي وخلفائه) موضوعية الأشياء (استقلالها) بصورة مباشرة وفورية ، ومعهـا نظرية الانعكاس . وظيفته تنتهي بذلك . ولكن الفكر انعكاس نوعي .

والمادية الجدلية لا تقف موقفاً سلبيـاً من « أنا أفكر « ديكارت » بل هي تقف موقفاً سلبياً من « اذن أنا كائن » (اذن أنا كائن كروح ماهوية مفكرة ، أنا روح أو فكر) .

بالضبط ، حتى حين أقول « أنا أحس ، أنا ادرك ، أنا أرى » (وهو مبدأ وموقف تجربي) فإني أستعمل **كلمات** ، اني في مسيرة فكْر .

« أنا أحسّ » **اذن** ← مادية الأشياء .

« أنا افكـّر » **اذن** الكينونة أمامي ، خارج الرأس المفكر ، و وظيفته أن يعكسها بشكل أمين ، عميق ، حيّ الخ .

(٦) **نقد اللغة** .

كل **الكلمات** لهـــا في التداول الشعبي والعلـْمي أكثر من معنى : **فاعلية** الشمس ، فاعلية الانسان الواعية ، فاعلية الفكر ؛ كذلك عمل ، انتــاج ؛ شغل في علم الاقتصاد وفي الميكانيك والفيزياء ؛ ممارسة ؛ تجربة ؛ وجود ، موجود ، كينونة ، كائن الخ ؛ شيء ؛ مــادة الخ ؛ وعي ؛ معرفة ؛ فكر الخ .

وكل الـكلمات أو أشهرها لها « معنى حقيقي » و « معنى مجازي » الخ .

حرف الجر الواحد له استعمالات ومعان عديدة ؛ المضاف إليه قد يكون هو الفاعل أو المفعول به (انتاج الفلاح ، انتاج القمح) الخ .

غاية تعني هدف ونهاية . في الفرنسية كلمتان احداهمــا تعني « نهاية » أو « غاية — هدف » وهي fin ، والأخرى تعني « هدف » فقط وهي but .

المثالية تنطلق من هذه الحالة * . كل الشرور تنطلق من هذه الحالة : فاعلية المادة تصبح فاعلية واعية ؛ كل نهاية تصبح غاية ؛ إعادة انتاج الواقع في الرأس أي نسخه في الرأس يصبح هو إنتاج الواقع ، المعرفة بما انهــا « إنتاج » تدعى انتاجاً وممارسة : الاحيائية ، المثالية ، هيغل ، ألتوسر الخ على هــــذا الخطّ « اللغوي » .

نقد اللغة ضروري ، أو بالأصح نقد خداع اللغة . وهـــذه الدعوة = المادية .

ولكن ، لئن كانت الكلمات تُستعمَل بأكثر من معنى ، فذلك لوجــود تماثل مع الاختلاف ، هوية مع الفرق ، لوجود **علاقة** .

---

* وهي جوهرياً واحدة في كل اللغات ...

ولا يجوز أن يكون نقـــدنا لخداع اللغة (وهذا النقد ضرورة بديهية) هروبـــاً من جدلية اللغة المرتبطة بجدلية الفكر ناسخ (بطريقته) الكينونة الجدلية .

ونستطيع أن نميّز ثلاثة مستويات أو ثلاث دوائر .

١ . الطبيعة بالمعنى الواسع ، السيرورة الموضوعية .

وهي أولاً الطبيعة بالمعنى الضيق .

٢ . الانسان ، عمله ، ممارسته ، انتاجه .

٣ . فكره ، معرفته الخ .

٣ **جزء من** ٢ و ٢ **جزء من** ١ . اللغة تنشأ في ٢ لتطبَّق على ٢ و ١ و ٣ ، بالضرورة . وبالضرورة يقبض الانسان على التماثلات والعلاقـــات . هـــذه هي **المعرفة** ، ومعها **التصويف** (نسيان الفروق ، وتشويه أو قلب العلاقات) .

إن نسيان التماثل بين ٢ و ١ هو حذف هوية ٢ كسيرورة **موضوعية** وإقامة مثالية «البراكسيس» (هكذا بعض الماركسيين وأنصاف الماركسيين)، أو هو إقامة طبيعة هامدة ، بلا فعل، بلا سببية ، بلا **سيرورة** ؛ في الحالتين انه يحذف الموضوعية الحقيقية، يحذف هذه الهوية : «**السيرورة الموضوعية**». وإن رفض تماثل ٣ و ٢ هو حذف تماثل ، وحدة ، هوية **الذاتي** . العلاقة هي فرق وتعارض وتناقض الخ. ولكن الفرق هو أيضاً هوية . هوية المصطلحات بين ١ و ٢ و ٣ مسوّغة ، مؤسسة ، **مبدئياً** . اللغـــة ، الفكر ، معرفـــة الانسان الخ ليست لوثة أو لعنة . اللسان أفضل وأسوأ مـــا في المرء ، أعظم وأخطر ما فيه . نؤكد الفروق ونمسك بالتماثلات . بدون الهوية ، الفروق تصبح هوائية ...

عبارة Theoretisches Verhalten (في الاطروحــة الأولى عن فويرباخ لماركس) تترجَم (بحق) : موقف نظري . Attitudeth وفاعلية نظرية . Activitè théor وربما سلوك نظري .Conduite th . ومن الحماقة أن نتصوّر أن الترجمة الثانية (فاعلية ، Activité) تقيم المثالية بينما الأولى (أو الأولى والثالثة) تدرأ المثالية . من الخطأ أن نرى Verhalt (موقف ، وقوف ؟) وأن لا نرى دلالة الحرفين الأخيرين (en -) . من الخطأ أن نتصوّر أن « الموقف » ليس « فعلاً » وأن الفكر ليس فاعلاً . أن نحوّل كلمة ليس الى « ليس قوة ٢ » وكلمة هو الى هو قوة ٢ .

في « مــا العمل ؟ » يقول لينين « ان رجل الدعاية يفعل agit خصوصاً بالكتابة ورجل التحريض يفعل خصوصاً بالقول الشفوي » . عنوان الكتاب ، خاتمة الكتاب ، كل الكتاب ، تثبيت لجدلية مقولة أو مفهوم «العمل». العمل الذي يدعو إليه لينين ليس إضراباً « مادياً » أو مسيرة « مادية » في الشارع «المادي» أو ضرباً بالسكّين أو البارودة (أو الكلاشنكوف) بل الانتهاء من طور في تاريخ حركة العمال ، دفن آراء ومواقف ، دفن فكري سياسي تنظيمي الخ . وهنا يسقط التعارض بين « مادة » و « فكر » ، و « تعود » الجدلية (التي لم تذهب أصلاً) .

في «**المادية والتجربية النقدية**» (IV — ٤) يقول لينين : « نحكم على انسان ليس بالاستناد إلى ما **يقوله** أو **يفكره** عن نفسه ، بل بالاستناد إلى **أفعاله** » . والفلاسفة ؟ كيف نحكم عليهم ؟ يواصل لينين : « الفلاسفة يجب أن نحكم عليهم لا بناء على **اللافتات** التي يرفعونها (« وضعية » ، فلسفة « التجربة الخالصة » ، « واحدية » أو « تجربية واحدية » ، « فلسفة علوم الطبيعة » الخ) بل على **الطريقة** التي بهـــا يحلون فعلاً en fait **المسائل النظرية الأساسية** ، على

الأشخاص الذين معهم يسيرون [ليس في الشارع ، بل في الفلسفـــة ، في النظرية ، في الفكر] ، على ما يعلّمونه وعلّموه لتلامذتهم وأتباعهم » . (IV – ١) .

أي ، في القضية التي تهمّنا (جدلية المقولات – المفاهيم – اللغة) :

القول والفكر والتصوّر (عن الذات) **مقابل** الأفعال : هذه هي علاقة أولى ، عامّة ، تتعلق بالانسان عموماً .

واللافتة – العنوان – étiquette **مقابل** النظرية ، الفكر ، حول المسائل الفلسفية الكبرى والمجردة : هذه علاقة خاصة تتعلق بالفيلسوف ، بالمفكّر .

فعل الفيلسوف هو هذا : خطّه الفلسفي الفكري .

وقول الفيلسوف وتفكيره عن نفسه هو هذا : اللافتة ، العنوان .

الخط الفكري للمفكّر هو فعله وعمله **في مقابل** لافتته التي هي قوله وتصوره عن ذاته . الأول هو الموضوعي والمادي في مقابل الثاني الذي هو الذاتي . الأول هو الشيء والثـــاني هو الكلمة ، هو الاسم الذي ليس بالضرورة مطابقاً للشيء ..

... نستطيع أن نتابع ، أن نعطي أمثلة وأمثلة من نصوص أعـــلام الماركسية .

لغة لينين بسيطة ، عميقة ، **جدَلية** . فكرٌ يفهمه أي انسان ، فكر **منطقي (لا تناقض فيه)** ، **جدلي** ناقل **علاقـــة** و **تناقض** الكينونة . والاستعمال الجدلي للكلمات (في **العلاقة** ، لا سيا الثنائية) حاصل عند لينين وسلفَيه ، بشكل بديهي لا يثير عندهم وعند قرائهم الماركسيين صعوبات أو مشاكل أو ... التباسات .

ولكن كم من « ثوار » نا حملوا الممارسة « المادية » (!) — سلاح ، « تنظيم » (!) ، عمل ، ثورة ... — ثم تبيّت هـذه « المادية » سرابية ، شبحية .

* * *



الفهرس



هذا الكتاب

بعد كتاب (دفاتر عن ديالكتيك هيغل) نواصل بهذا الجزء ونختم بالجزء الثاني ، الذي سيصدر ومباشرة بعد نزول هـذا الكتاب للقارىء ، اصدارنا لدفاتر لينين الفلسفية .

ان هذه القراءة للينينية الفلسفية مدخل لا غنى عنه لمعرفـة ما هي المادية . وليست المادية مجرد السؤال عن أيهما أسبق المادة أم الفكر .

ان اشكالية المادية هي ايضاً اشكالية الديالكتيك ، أو أن النظرية المادية للمعرفة ، والديالكتيك ، والمنطق ، شيء واحد في كلمات ثلاث . من هنا قيمة هيغل وفويرباخ ، وقراءة لينين لهما في هذا الجزء من الدفاتر الفلسفية والجزء الذي سيليه .

ان الاشتراط الفلسفي الاول هو وعي أننا نعمل بالمفاهيم .. أما عن المؤلف فأنه .... لينين ..

دار الحقيقة للطباعة والنشر بيروت
ص . ب ٨١٤٧

الثمن : ٣٧٥ ق. ل.